المركز القومى للترجمة



مختارات

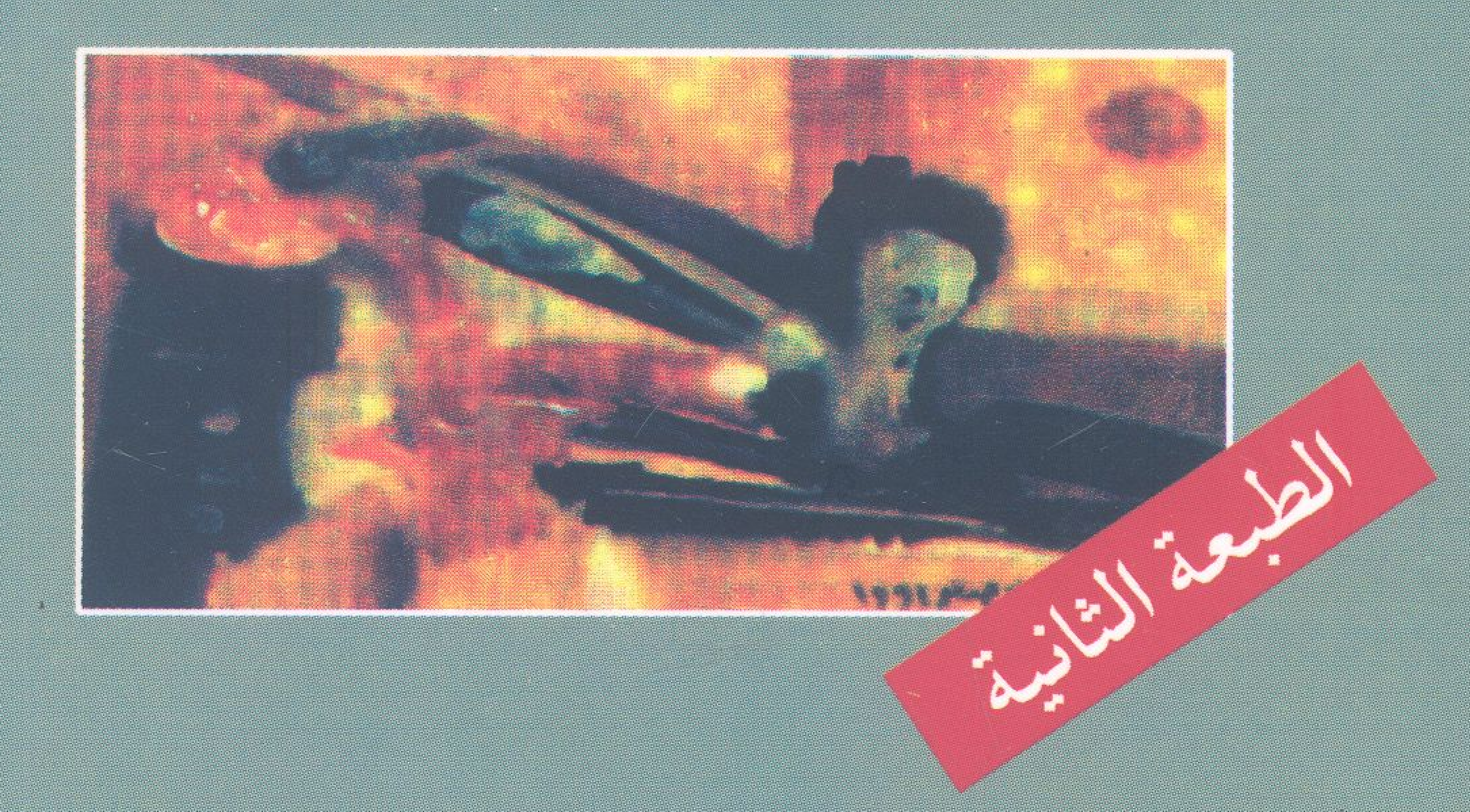






Selection

Fernando Pessoa



الطبعة الثانية

فرناندو بيسوا

ترجمة: المهدى أخريف

2/67

مختـارات
(فرناندو پيسـوا)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٦٧/ ٢
- مختارات
- فرناندو بيسوا
- المهدى أخريف
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

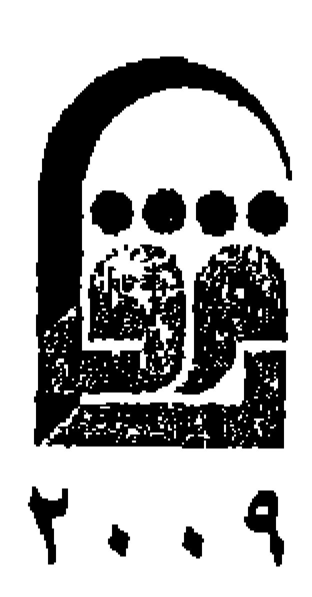
هذه ترجمة لمختارات من أشعار فرناندو بيسوا

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526
Fax: 27354554

مختارات
فرناندو پيسوا

ترجمـــــة: المهدى أخريف



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١٠٨٨٩ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 5 - 319 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

إضاءة

هى ذى « مختاراتى الثانية » من أشعار فرناندو پيسوا أضعها بين يدى القارئ لتضاف إلى المختارات الأولى التى صدرت فى القاهرة (هيئة قصور الثقافة) ، ثم الدار البيضاء (دار الرابطة) منذ بضعة أشهر .

مايميِّز هذه المختارات هو شموليتها بعدم اقتصارها على قصائد لشاعر واحد كسابقتها (ثلاث قصائد لألباروديى كامپوس) مع توفُّرها على تمثيل واسع ومتكامل لشعراء پيسوا الأربعة : پيسوا أولاً ، فمُعلِّمه ألبرطو كاييرو ، فريكاردو رييس ، ثم ألباروديى كامپوس « الپيسيوى الأكثر پيسوية من پيسوا » .

لم يكن العمل فى هذه الترجمة خالياً بالطبع من المصاعب والمثبطات ؛ لقد اصطدمت بعوائق وإرغامات متباينة أجبرنى بعضها على التخلِّى كلية عن مراودة قصائد عديدة شغفت بها ، كما دفعنى بعضها الآخر إلى التوقف والتأنى وابتكار صيغ و « أساليب » خاصة لتجاوز بعض المآزق التركيبية والتَّغيرات المجازية « الپيسوية زيادة على اللزوم » .. وإذا كنت قد توصَّلت فى النهاية إلى إنجاز ما أنجزته فلأننى كُنْتُ مَقُوداً بقُوَّة الشغف ولذة الإنصات ، ولأننى أيضاً عرفتُ كيف أُروِّضُ « لغاتى » و « ألِّين » اختياراتى ، مستعينا ، بغية التدقيق ، بأكثر من ترجمة واحدة من الترجمات الإسبانية ، التى اعتمدتها ، للنص الأصلى ، مع مقابلتها ، كلما كان

ذلك ضرورياً ، مع القصائد في لغتها البرتغالية الأصلية ، بفضل العَونِ الشغوف للصديق الأستاذ پيدرو ڤيلاسكيز دورو تارة وبجهد تتبُّعي الشخصي تارة أخرى ، خاصة وأن القرابة بين اللغتين الإسبانية والبرتغالية تصل إلى حد التطابق التّام في الكثير من التراكيب والصيغ .

لَقَد اضْطررتُ غير مَا مَرّة إلى إدخال تعديلات شتى ، تَحويراً وتنقيحاً وتجويداً ، على قصائد عديدة ترجمتها بعد اطلاعي على ترجمات إسبانية أخرى بَدَت لي أجود وأدق . وهو ماجرى لي بالفعْل مع بعض « أناشيد » رييس ، وقصائد پيسوا ، وخاصة مع « نشيد الظَّفر » لألبارودي كامپوس التي أدخلتُ على ترجمتها المُنجزة مُنّذ سنوات ، تعديلات واسعة اعتماداً على نَصّ الأستاذ خوصي أنطونيو جاردينت * الأدَقّ والألصقِ بالأصل من ترجمة أوكتافيوپاث التي اعتمدها البداية .

ربما يكون نجَاحي في ترجمة « الأشعار الحارة » ، أشعار كامپوس كاييرو ، أَبْرَز مِنْ مَثيله في « الأشعار الباردة » ، أشعار پيسوا وريس تَخْصيصاً ؛ لأن « القصائد الحارة » تلك تمنح نفسها بيُسر أكبر وتُتيِح ، عبر أسلوبها السيَّال والمباشر ، الإمساك بتيار الإيقاع بِسُهَولة لاتُتيِحُها « القصائد الباردة » ذات البنية

القصيرة المراوغة والنبرة السهلة الممتنعة حيناً أو الملتبسة حينا آخر . وهذا مايفسِّر ويُبررُ الحَيِّز المتقلِّص الذى تحتله « أناشيد » رييس فى هذه المختارات بالمقارنة مع الحَيِّز الممنوح لباقى الأنداد .

آمل أن يَجِد القارئ فى هذه الأشعار الموسومة بجهد وصدق إنسانيين نادرين ، ماوَجَدتُ شخصياً من متعة ، متعة الشعر والفكر والإحساس ، كما آمل أن تكون كافية لتمثُّل وتذوُّق خصوصيات الأنداد وفرادتِهم وفى نفس الآن للإمساك بذلك الخيط الرؤيوى والروحى الذى يجمعهم ويوحد مقصدهم الشعرى ، خيط الإحساس بانعدام الوزن ، ذلك أنهم جميعاً ،على ما بينهم من فوارق مَظهرية ، ينتمون إلى تلك الفصيلة النادرة من « الكائنات ذات الخِفَّة التى لاتحتمل » ، (ميلان كونديرا) ، والتى مهنتَها الهروب الدائم إلى الداخل وإدمان اللعب فى زوايا الخيال الكئيبة فراراً من ورطة الوجود بالقسر ...

إن الوشائج التى تجمع هؤلاء الأنداد تتجاوَزُ ماخَلَّفوه من أثر شعرى ، لتمتد إلى النثر وإلى ما مارسوه من أفعال رمزية ، وحيوات مصطنعة ومقنَّعة ، فقد تبادلوا علاقات صداقة متفاوتة المستوى (باستثناء رييس وپيسوا اللذين لم يتعارفا شخصيا) . كما تبادلوا النقد والتعليق على أشعار بعضهم بعضاً وجرَت بينهم

مساجلات ومجادلات إسطيطيقية خصبة مست الشعر والنثر وامتدت إلى الفلسفة والدين والأخلاق والسياسة **
وعلى الرغم من تباين مسالكهم ومصائرهم فقد عرفوا تقريباً نهايات مشابهة وتبخَّروا فى صمت ، داخل بئر عزلتهم الخاوية ، عزلة خالقهم پيسوا الذى كان آخر ماخَطَّه عشية موته هذه الكلمات : اسقنى مزيداً من الخمر ، لأنَّ الحياة لاشئ .

المهدى أخريف

(*) خوص أنطونيو جاردينت : (1987 - 1935) Jo.ose Antonio LLardent حاصل على الجائزة الوطنية فى الترجمة الأدبية سنة 1987 بفضل ترجماته الجيدَّة للعديد من أعمال پيسوا الشعرية والنثرية .

(**) يمكن الرجوع لمن أراد التوسّع فى معرفة النشاط النقدى والنظرى لپيسوا وأنداده إلى كتاب : Fernonedo Pessoa :

El Regreso de los Dioses

Troducción del Portuguez Ydel Inglés : ANGEL Crespo

Seix Barral . Primero edición 1986 - Barcelana .

إسطيطيقا التنازل

فرناندو أنطونيو نوغيرا پيسوا ؛ ولد فى لُشبونة يوم 13 يونيو 1888 وتوفى فيها يوم 30 نوفمبر 1953 . طوال السنوات السبع والأربعين التى عاشها ، تميزت حياته وأعماله الخارجية « البيوغرافية » حسب توصيف ذاتى محكَم له ، بالرتابة والبساطة ، حياة « رجل عايش الأشياء التى تحدث فى الحياة ، من بعيد ، مبتسماً ، بدون أن يختلط بها » . فى البداية جعل من « مهمة العبقرى المقدسة والرهيبة » هدفاً حيوياً لحياته ، غير أنه لم يلبث أن اكتفى بالاعتقاد بامتلاك مزايا عالية من الذكاء والحساسية مناقضة « للآخرين » الذين وجب عليه أن يتجاهلهم فى علاقته كإنسان وككاتب .. وهكذا قَرَّر التخلى عن جميع أشكال الشهرة التى تليق فقط « بالممِّثلات والمنتوجات الصيدلية » حسب تعبيره . بدون إظهار أى ندم أو مرارة أوحقد . لقد حَوَّل ، ببساطة ، طاقته الاستثنائية إلى مادة أدبية من خلال « إسطيطيقا » أطلق عليها نعت « إسطيطيقا التَّنَازُل » ، وحرص على

الالتزام بها حتى نهاية أيامه . غير أنَّه كَانَ قد نظَّر لها منذ 1985 بهذه العبارات : « إن الظافرين عموماً سرعان مايفقدون المزايا الناجمة عن الظفر؛ لأن الشعور بالرضى يستولي عليهم . ووحده القانع يشعر بالرضا . أما الذى يفوز حقا فهو الذى لايملك عقلية الظافر ، والذى لايصل أبداً إلى مبتغاه . وحده القوىُّ ، همَّته فى فُتور مستمر » . الأفضل ، إذن ، هو التنازل عن كل طموح . « فالإمبراطورية العليا هى فى ملك الإمبراطور الذى يتنازل عن كل حياة عادية وعن البشر كافة » .

هذه « الاسطيطيقا التنازلية » مَسَّت كل جوانب حياة بيسوا.بَدْءاً من الوضع المادى – كان مخططه المالى المعلَن هو ضمَان الحصول على 70 دولاراً فى الشهر ، كحدٍّ أقصى ، بدون زيادة دولار واحد – إلى نظام العلاقات الإنسانية ، من الحب إلى الصداقة على أساس أنَّ « فِعْل الوجود الإلهى يجَب ألاَّ يتماثل مع فعل التعايش الشيطانى ، لكنَّهُ على عزلته ، واحتفاظه بالمسافة الدائمة بينه وبين الآخرين لم يستطع التخلص من أسْر الحياة اليومية الظاهر ؛ تلك الحياة التى شكلت المكان الملائم لإنجاز « مهمته : مهمة الرجل العبقرى « إنها فضاء الإنصهار فى الكتابة عبر الخضوع « لمعلمين لايتساهلون ولايغفرون » ، لكن ألاَ يصحُّ اعتبار ذلك التخلِّى فى النهاية شكلاً من أشكاله « خَجَله المتعالى » الذى دفعه إلى التأكيد : « ... تفزعنى كل الحركات

والإشـارات ، كل عباراتى مُنتَزعة من سـهولة الانفـعال المباشـر » ! . مـهـما يكن من أمْر فـقد توالت أيام ييسـوا بين اليـومى الأكـثـر مـبـاشـرة بـإرغـامـاتـه المسـتـمـرة وبين مـغامـرات الكتـابة باعتبـارها الرغبة الوحيـدة الفـاعلة فى الـحياة .

فرناندو پيسوا

أولاً : مختارات شعرية II

ترجمة : المهدى أخريف

مطر مائل

I

بِهذا المشهد يَمُرُّ

حُلمى بميناءٍ لامتناهٍ ،

لون الأزهار هو شفافية أشرعة السفن الكبرى

التى تُقلع من الرصيف ساحبةً على المياه فيما يشبه الظِّلَّ

أطيافَ تلك الأشجار العتيقة تحت الشمس .

مينائى المحلوم به معتم وشاحب ،

والمشهد مفعم بالشمس فى هذه الناحية ...

لكن شمس اليوم ميناء مظلم فى روحى

والسفن المقلعة من الميناء هى الأشجار تلك تحت الشمس . متحرِّراً ، أُغادر المشهد الأسفلَ ،

شبحُ الرصيف هو الطريق فى وضوحه وهدوئه

منتَصباً مثل جدار ، لدى ارتفاعه ،

من داخل جذوع الأشجار تَمُرُّ السفن

بعموديَّة أفقية

ثم تمضى بَاثَّةً فى المياه مَرَسَاتِها داخل الأوراق

واحدة فواحدة ..

زمَن لِمَن أَحلمُ ؟ لا أدرى

فجأةً تَشِفُّ كُلُّ مياه البحر ،

فَأُبصِرُ فى العُمْقِ ، كما لَوْ أَنَّ صورةً هائلةً كانت مَنشورةً هنَالك .

كُلُّ هذا المشْهدِ ، صَفُّ الأشجار ، الطريقَ المضطرم

فى ذلك الميناء ،

ثُمَّ ظِلُّ سفينة شراعية أقدم من الميناء ذاته ، يَمُرُّ

بين حلمى بالميناء وَرؤْيتى لهذا المشهد،

ظِلاً يَصِلُنى فَيتَغَلْغَلُ فىَّ

منتقلاً إلى الجانب الآخر من روحى ...

II

من الداخل تُضاء الكنيسة بمطر هذا النهار ،

كُلُّ شمعة تُضَاءُ هى مَطَر آخر يخفق فى الشمعدان ...

يبُهجنى الإصغاء إلى المطر ، مَطَرٌ هُوَ تلألُؤُ الكنيسة بالأضواء ،

وشَمعدانات الكنيسة مرئيةٌ من خارج هى صوت المطر مسموعاً من الداخل .

رَوْنَقُ المذبح الأعلى يَحُولُ دُونَ مُشَاهدتى الجبالَ مِنْ خَلَلِ المطر ، المَطَرِ الذى مِنْ ذَهَبٍ مَهيبٍ على سُفرة المذبح

هُوَذَا رَنين غناء الكورس الكنائسىِّ ،

بداخلى صَوْتُ اللاتينية مَمزُوجاً بالريح يَرُجُّ الشمعدان ،

فيما زَقْزَقَةُ المَاءُ تُحَسُّ مِنْ مجرَّدِ أن ثمت كورس

ليس القُدَّاس سوى سيَّارة تَمُرُّ

مِنْ خلال المخلصين الراكعين لأنَّ اليوم حزين ..

ريح فجائية تَهُزُّ بِبَهَاءٍ أعلى

احتفال الكاتدرائية ، بينما صخب المطر يمتصُّ كُلَّ شئ

إلى حَدٍّ ألاَّ صَوْتَ يُسمع غير صوت القسّيس
مَاءً مَهْدوراً فى البعيد
رفقه صَوْت عَجَلات سَيَّارة ...

وفى المطر المتوقّف
تنطفئ أضواء الكنيسة ....

III

أَبُو هَوْلِ مِصْرَ الأكْبَرُ وَرَقٌ حَالِمٌ فى الداخل ...
أكْتُب – وَأَبُو الهَوُل يتمرأى من خَلَل يَدِى الشّفَّافة ،
وعلى حاشية الورق تَنْتَصب الأهرامات ...
أكتب – منزعجاً من كون رأس قلمى
عبارة عن بروفيل للملك keops
فجأة أتوقَّف
لَقَدْ تَعتَّم كُلُّ شئ ، ... أسقط فى هُوَّةٍ من زمن .
مُغطىً بالأهرامات ، أكتب أشعاراً على الضوء
السَّاطِع لهذا القنديل

ومِصْرُ كُلُّها تضغط من أعلى عَلَىَّ عَبْرَ جرَّات القلم ...

أسمع أبا الهول يضحك من الداخل ،

أسمع صوت قلمى يَعْبرُ الورق ...

يَدٌ هائلة تتخطَّى مالستُ قادراً على رؤيته ،

ثم تَسْحَبُه بالكامل إلى حافَّة السَّقف القائم عند كاهلى ،

وفوق الورق الذى عليه أكتب ، بين الورق والقلم الذى يَكتُبُ ،

يرقُد جثمان الملك KEOPS مُحدِّقا فىَّ بعينين مفغورتين ،

بين تقاطع نَظْرتَيْنَا يجرى النِّيل

وبينى وبين ما أُفكِّر فيه ،

تَائهةٌ تَمْضى بانحراف مبهم مَسرَّةُ مراكب مزدانة بالأعلام .

مِنْ ذَهَبٍ عَتِيق وَمِنِّى مَأْتَمُ الملك KEOPS ...

IV

يالَزيف السكون الثاوى فى هذه الغرفة !

– فى الأندلس تُوجد الجدران –

ثمت رقصات شهوانية فى السطوع الثابت للنور

الفضاء بكامله ينحبس فجأة

يتوقَّف ، ينزلق ، يتحلَّل ..

وفى رُكن مّا من السَّقف ، أبعد من السقف بِكثير ،

هنالك أَيَادٍ بيضاء تفتح نوافذَ سريّة عديدةً

فيما بَاقَاتٌ بنفسج تمضى منهمرةً

من تكلم الليلة الربيعية المحتملة فى الخارج ،

فوق وجودى هذا بالعينين المغلقتين ...

V

فى الخارج أحصنة المعرض الاصطناعية تحت دوّارة الشمس تَدُور

أحجار ، أشجار وجبال ترقص فى داخلى دون حِرَاك ...

ليل شامل فى المعرض المضاء ، قَمَرٌ فى النهار مَع الشمس التى هناك

وكل أضواء المعرض تَرِنُّ على حيطان الحديقة * ...

جموع صبايا بأباريق على الرؤوس

سائرات فى الخارج ، مبتهجات بوجودهِنَّ تحت الشمس ،

وهن يتقاطعن مع جموع لَزِقَةٍ كبيرة مِنْ أناسٍ يسيرون

عبر المعرض ، مع كل أولئك البشر المختلطين بضوء الأكواخ بالليل والقمر ...

يلتقى الجمعان ويتداخلان

مكوِّنَيْنِ فحسب مجموعة واحدة ، هى فى حد ذاتها مجموعتان ...

المعرض والأضواء والناس السائرون عبر المعرض ،

والليل الذى يمسك بالمعرض ويقوده بغير استقرار ،

جميعها فوق رؤوس الأشجار المفعمة بالشمس ،

مَرْئيّةً تسير تحت الأحجار اللامعة تحت الشمس ،

* ترجمة غير دقيقة لـ Quintal . وال Quintal هو تلك الفسحة البستانية الصغيرة المتصلة بالمنزل بدون أن تكون لابستاناً ولاحديقة .

متدفّقةً من خلف الأباريق المحمولة على رؤوس الصبايا ،
مشكّلةً كُلُّها بضوضائها وأضوائها أرضَ هذا اليوم المشمس .

فجأةً هناك من ينفُض ، هذه الساعة المزدوجة ،
كَمَنْ ينفّض غربالاً ،
بينما غُبَارُ الوَاقِعَيْنِ * المختلط يسقط
فوق يَدىَّ المليئتين برسوم موانئ
تُقلِعُ منها سُفُن كبِيرة لاتفكّر فى الرجوع
غبار من ذهب أبيض وأسود فوق أصابعى ...
يداى هما خطوات تلك الصبيّة التى تترك المعرض
وحيدةً مبتهجةً بَهْجَة هذا النهار ...

V

القائد يحُرك عصا الأوركسترا
التى تقتحم العزف بفتور وكآبة

* مُثنّى واقع : Realidad .

أتذكَّر طُفولتى ، ذَلكَ اليومَ الذى كنتُ ألعب فيه قرب حائط الحديقة

قاذفاً إيَّاهُ بالكرة التى كان وَقْعُها شبيهاً

بانزلاقة كلب أخضر تارةً ،

وبحصانٍ أزرق يَعْدُو بفارس أصفر ، تارة أُخرى

الموسيقى تتواصل ، وها هنا فى طفولتى ،

هاهنا فجأةً بينى والجدار الأبيض ، وقائد الأوركسترا ،

تذهب الكرة وتجيءُ ، كلباً أخضر حيناً

وحصاناً أزرق بفارس أصفر حيناً

المسرح كله هو حديقتى ، طفولتى

موجودة فى كل مكان والكرةُ محمَّلةً بالموسيقى تجيءُ ،

بموسيقى غامضةٍ كئيبة تتجوَّل عبر حديقتى

مُرتديةً هَيْأَةَ كلب أخضر وهى تدور فى ثوب فارس أصفر ؛

(بسرعة تدور بينى وبين الموسيقيين الكرة)

أقذف بها فى وجه طفولتى فتقطع

كل هذا المسرح الموجود عند قدمىّ لاعبةً

بفارس أصفر ، بكلب أخضر ، وبحصان أزرق

يطل من حائط حديقتى .

بينما الموسيقى تقذف بالكرات صوب طفولتى ..

وحائط الحديقة مصنوع من إشارات

عصا الأوركسترا ومن تعاقبات ملتبسة لكلاب خضراء

وبضعة أحصنة زرق وبعض الفرسان الصُّفْر ...

المسرح بكامله حديقة موسيقى بيضاءُ

حيث الكلب الأخضر يركض خلف

نوسطالجية طفولتى ، حصاناً أخضر يَعْتَلِيهِ فارس أصفر ..

من جهة إلى أخرى تذهب الكرة ، إلى اليمين ، إلى الشمال ،

حيث الأشجار ووسط الغصون القريبة من القمة

تعزف الأوركسترات ،

حيث صفوف من الكرات مجمَّعة فى الدكان الذى ذهبت إليه لِأبتَاع كرتى ،

ووسط ذاكرات طفولتى يبتسم البائع ...

لكنَّ الموسيقى توقَّفتْ مثل انهيار جدار ،

والكرة ظَلَّتْ تدور حول هاوية أحلامى المجُهضة .

والقائد ، الفارس الأصفر من أعلى الحصان الأخضر

انحنى مقدِّما تَشكُّراته واضعاً العصا فى فتحة جدار ،

انحنى ، باسماً ، بِكُرةٍ بيضاء على الرأس

كرة بيضاء تدحرجت من أعلى الظهر

وانْدَمجتْ فيما هو أسفل .

فصول / المومياء

I

أميالاً من الظِّل قطعتُ
دَاخِلَ تفكيرى .
من السطح يُزْهر فَراغى
مع مَا لاجنس له .
والمصابيح أُطفئت
فى المَخْدع المهتزّ .

فجأةً يتحوَّل كل شئ
إلى صحراء ناعمة
لا أبصرها بعيني
بل بملْمَسى المَقْدودِ من مُخْمَل المَخَادِع .
ثمة واحة فيما هو ملتبس

وفيما لا صُدَوع فيه

هناك قافلة تَمُرُّ

مثل شبهة ضوء

فجأةً أنسى الفضاء

كيف هو ، والزمن يغدو عمودياً

بدلاً من أن يكون أفقيا .

لا أدرى المضْجَعَ

أين يتحدًّر

حتى لايعثر عليَّ .

ثمة بُخار خفيف يعلو

مِنْ أحاسيسى .

أكف عن أن أوُجَد

داخل ذاتى . لاوجود

لِـ هنا فى الداخل /: هنالك فى الخارج

والآن تلك الصحراء

أضْحَتْ فماً محنيّاً

مَعْرفتى بِحركاتى

نَسِيتُ اسْمِى .

لقد ثَقُل الجسَدُ على روحى

أحُسُّ بحُلَوائىً

مُعَلَّقٍ فى الصالون

حيث يَرْقُد أَحَدُهُمْ مَيِّتاً .

ثَمَّتَ شَىءٌ هَوَى

يَطِنُّ فِي ما لا يتناهى .

II

ميّتة فى الظل ترقد كليوباترا .

ينهمر المطر .

لقد أساؤوا تزيين المراكب بالرايات .

دائماً يسقط المطر

لأجل مَاذَا تتطلع أنتَ إلى المدينة البعيدة ؟

روحك هى المدينة البعيدة .

ببرود يسقط المطر.

أمـا بالنسـبـة إلى الأم التى تهـدهد الابن الميت فى حضنها .

فكلنا نُهَدّهدِ فى الحضن طفلاً ميِّتاً .

المطر ، المطر .

الابتسامة الحزينة الفائضة عن شفتيكِ المتعبتين

أراها فى الحركة التىْ تتشبث فيها أصابعك بالخواتم .

لماذا يسقط المطر ؟

III

لـمَن النَّظرُ

المومِضُ عَبْر عينىَّ ؟

عندما أتفكَّرُ ما أراه

من يستمر فى الرؤية

وقت انشغالى بالتفكير ؟

وأىّ طريق تتابعُه

لا خَطواتى الكئيبة ،

بل وَاقع خَطَوات بمعيَّتى ؟

أحيانا فى ظل غرفتى المبتور

عندما لا أكون موجوداً حتى

على مستوى الروح ،

يكتسى الكون فِىَّ شكلاً آخر :

شكل بُقْعة كُسُوفيةٍ مِنْ وعيه

بفكرتى عن الأشياء .

إن أشعلتم الشموع

ولم يكن وحده الضوء

الخارجى المبهم موجوداً

– من فنار موقد فى الشارع

لا أدرى أين ولا ماهو ؟ –

ستكونُ لدي الرغبة

القائمة فى ألاَّ يوجد أبداً

فى الحياة والكون

غير الساعة الغامضة

التى هى حياتى الآن :

هنيهة رافدة

لِنَهْرٍ مُتَّجه عَلَى الدّوام

إلى نسيان أنه موجود ،

فضاء خفيّ

بين فضاءاتِ صَحارى

مَعْنَا هُنَّ باطل

وحيث العدم عدم .

هكذا ميتافيزيقياً

تَمُرُّ الساعة .

IV

متدحرجاً يسقط

قَلَقي على السُّلَّم

رغباتي وسط حديقة

عَمُودية تتدحرج .

عند المومياء الوضع مضبوط تماماً .

موسيقى نائية ،

موسيقى نائية جداً

لكى تُمرَّ الحياة

وتُلَمَّ الحركات

V

لماذا تفتح الأشياء الشوارعَ لخطواتى ؟

إننى أخشى المرور وسطها ، بتَصلُّبها الواعى

أخشى أن أتركها تزيح القناع إزاء ظَهّرى .

لكن دائماً ثمت أشياء إزاء ظهرى .

أحسُّ بغيا بهن الذى كله عيون تحدِّق فيَّ فأرتعش .

الجدران ، حتى بدون أن تتحرَّك ، ترشقنى بالمعنى .

الكراسى ، من غير صوت تكلمنى به ، تتحدَّث معى .

رسوم سُفرة الطعام تملك حياة : كل رسم هاويةٌ .

بشفاه لامرئية مَنْظُورةٍ يبتسم الباب

الذى ينفتح واعياً تماماً

بدون أن تكون هناك يد تفتحه غير الطريق

من أىٍّ مكان ينظرون إلىَّ ؟

أية أشياء عاجزة عن النظر تلك التى تنظر إليَّ

من يتجسَّس على كل شئ .

التماعات السنابل تحملق فيَّ

الجدران الملساء تبتسم بالفعل .

إنه الإحساس بكوني أوجد فحسب

من خلال عمودى الفقري .

السيوف

السيوف .

نعم ، سأفعل ، وساعة إثر ساعة تَمرُّ الأيام*

سأفعل ، ويوماً إثر يوم تَمرُّ الشهور
وأنا ، ممتلئاً دائماً فقط بما سأفعله ،
أرى أنَّ ما سأفعله لايُفعل ،
داخل النوسطالجيا اللأمجدية لذاتى نفسها .

سأفعل ، سأفعل ... الشهور تصبح أعواماً
والأعوام هِى الحياة بكاملها ،
هى الكل ... ودائماً نفس الإحساس
بأنَّ كُلَّ شئ فى المتناول ،
دائماً القدم ساكنة واليد جامدة .

سأفعل ، سأفعل ، سأفعل ... نعم ، بإمكان
أية لحظة رُبَّما أن تمدّنى بالجهد والظَّفر ،
لكن ذلك ممكن فحسب إذا أمدَّتنى به من الخارج .
لقد رغبت فى كل شئ – السلم ، الأمل ، المجد ...
أى لاَمَعْقُول مظلم ينتحب فى روحى ؟

(*) ترجمها عن البرتغالية إلى الاسبانية : Gustavo FBra .

كُنْ هادئاً أيُّها القلب ! لاتيأس ! ..

رُبَّما ذات يوم ، فيما وراء الأيام ،
تعثُّر عَلَى ما تُرِيد لأنك تريده .
حينئذ ، متحرِّراً من النوسطالجيات الزائفة ،
تُدْرك كمال الكائنات .

لَكِنْ ، كم هو مسكينٌ حُلْم من لايُريد سوى عدم امتلاك حلمه :
كم هو بَئِيسٌ آمُلُ أَنْ تكون موجوداً وحسب !
كَمَن .. يُمرِّر على الشَّعر يَدَهُ
وهو يشعر في ذاته بأنه مختلف ،
كَمْ مِن ضَرَر يُلحِقُه بالحُلم حَمْلُ الحلم !

كن هادئاً أيها القلب ، بالرّغم من كل شئ ، وَلْتَنَمْ ،
الهُدوء لايُجَشّمُ مُبَرِّراً ولاحجّةً ،
إنَّه يتطلَّب فقط الليلَ الساكن الهائل ،
تلكَ الوقفة المهيبة ، العظيمة الكونية
التي تنحلُّ في كل الأشياء .

ربما ذات يوم أنظم قصيدة لى

لأذلك الشئ الذى ، إذا حَلَّلتُه ،
وجَدْتُه فحسب الثَّوْب الذى نسج فى داخلي
من كثرة الارتجال اللاشخصى والمجهول
الذى نَسيني أَوْ نَسيَ ذاته .

قصيدة تنتسب إلىَّ ، وفيها تنساب كينونتى ،
فيها أَقُول ما أُحِسُّ وَما أنا إياه .
بدون تفكير ، ولا إرادة ، ولاتكلف ،
مثل مكان مضبوط تماماً ، حيث كُنتُ
وحيث بإمكان الغير ، أَنَّ يَرَوْنى ، مثلما أنا عليه .

آه ، لكن مَنْ يستطيع أن يكون من هو ؟ من يعرف
تَملُّك الروح التى يَمْلك ؟ مَنْ ذَا الَّذى هو بالذات من هو ؟
نحن ظلال لأنفسنا وحسب ، وَحْده الانْعكاس يطابقنا .
لكن أىّ انْعكاس ؟ انعكاس غصون لاَ وَاقعية ؟
رُبمَّا الهواء وحده يطوينا وَيَنْشُرُنا .

كتابات قبرية

I

نَمرُّ حالمين . الأرض تبتسم ، الفضائل تزداد نُدرة .

العمر ، الواجب ، الآلهة تتحكَّم فى سعادتنا الواعية .

ترقَّب الأحسن وتهيَّأْ للأسوأ .

فى هذه الوصفة تتكثف خلاصة الحكمة .

II

الأقدار العاتية استسلمت إلي ، أنا كَلْوِى ، الصبيّة .

التى ماكانت تعنى شيئاً بالنسبة إليهن ، إلى الظلال الممتلئة .

هكذا هو الحب لدى الآلهة . لم تكن سنواتى

قد جاوزتِ السبع مرَّتين

فى مروجى السحيقة أرقد منسيّة .

III

من خلوتى على التّل حدّقت مَليّاً نحو الأسفل ،

نحو المدينة الصاخبة ؛

بعدئذ أمضيت أحَد الأيام (ضَجِراً من مراقبة الحياة متخلّياً عن الأمل الأبله)

بَدْلتى فوق رأسى

(كما لوكانت هذه الحركة شيئاً ذَابَال)

كَأنّنى أرفع جناحاً .

IV

Cécrops لَمْ يَرْعَ نحلاتى . أشجار زيتونى

أَعْطَتْ زيتاً كالشمس ، مِنْ بعيد ثَغَتْ قطعانى

المسافر المُتْعَب مال إلى بابى

الأرض المبتلّة محتفظة ماتزال برائحتها .

حاسة شمّى ميّتة الآن .

V

عرفتُ الظفرْ البرابرة الأباعد سمعوا باسمى .

الرجال مثل البيادق فى لعبتىَ هذه

لعبتي التى لم أستفد فيها أنا بالذات من دورى غير القليل

قــذفتُ بالبـــيــادق إلى الهـــواء . والقـــدر تكفل بالحساب .

VI

ثمت من أُحِبُّوا وثمت من سُعِّروا كالأسهم .

ياقرينة رفيقى الراضى الطبيعية .

كافياً كنتُ لَمَنْ كَانَ كذلك ،

مشيتُ ، نمْتُ ، أنجبتُ ، وبلا هَدَف شِخْتُ .

VII

كمن يبُعد كوباً للغير أَبْعدتُ اللذة .

جَـادٌ ، مـتـبـاعـد ، واثق ، وجـهـت نظري إلى حـيث يتراءى الآلهة

من ورائي انزلق الظل العمومى

وأنا أنوِّمُ حلمى حَالِماً بأننى لم أَنَمْ .

VIII

خمس سنوات شحيحة مَرَرْنَ قبل أن أَمُرَّ أنا أيضـا .

جَاءَ الموت ومضى بالمخلوق الذى كان هناك .

مـــامن إله قَــدّم الغــوث ، ولاالقــدر ابـتــسـم للـيــدين الصـغيرتين

وهو ينقضُّ على الفريسة الصـغيرة .

IX

لَقَدْ نُصـبَ السكون حيث أقيمت المدينة العتيقة .

هنالك ينمو العشب حيث مامن ذاكرة تدوم

غبارٌ نحن الذين نتناول الغذاء بصوت مسموع.

التاريخ تَمَّت روايته .

فى البعيد يهمد وقع الحُدَوات وآخر أضواء الخان يختفي .

X

لقد تبادلنا الحب ، نحن المستريحون هنا . إنها لمفارقة .

يدى المفقودة تجنح إلى التحلُّل فى فراغ تجويفتها .

كل محبوبٌ مجهولٌ ، بالنِّسبة إلى العارف بالحب .

كم أحسَسْنا بوسامتنا ، وكانت القبلة شعارنا الأثير *

XI

من أجل مدينتى البعيدة كَافَحْتُ وسقطتُ

لم أُعبِّر جيّداً عَمَّا كانت تريد ، بيد أنها كانت فى حاجة إلىَّ .

* ترجمة مغايرة نسبيا للأصل .

لقد تَحرَرَّت أسوارها ،
لسانها يحفظ ما قلتُ ، والرجال يموتون ،
لكنها لاتموتُ ، مثلى .

XII

نحن لم نعش الحياة ، الحياة هى التى عاشتنا ،
بنفس الطريقة التى يرشف فيها النَحلُ الرحيق ،
نَرى ، نتكلم ونحيا . الأشجار تنمو ، بينما نحن نِيام .
نحب الآلهة تماماً مثلما نُشاهد مركباً ،
بدون أن نعى أبداً أنَّنا واعون ، نَمْضِى .

XIII

لقد أُنجزت الأشغال . المطرقة تستريح .
العمال الذين شيَّدوا المدينة النامية ببطء
تَمَّ استبدالهم بالذين مازالوا يشيِّدون
هذا كله شئ يُخفي الحاجة إلى شئ آخر .
التفكير داخل المجموع ليس له معنى

لكنه على جدار الزمن يرقدُ مثل جَّرةٍ مقلوبة .

XIX

عندما كانَت السماء الزرقاءُ سمائى ، كان هذا يغطينى .

هذه الأرض التى وَطِئتها فى زمن آخر تخنقنى الآن .

ويدى هى التى أَلَّفَتْ هذه الكتابات القبرية ،

بدون أن تعرف بالكادِ لماذا .

وأنا آخر العابرين ، الذى من هنا يتأمَّل الجميع .

من :

ديوان الأغانى

I

ورقات ، ابتسامة مسموعة

حفيفُ ريح بالكاد

إن كنتُ أنظر إليك وتنظر إلىّ

فمن مِنّا سيبتسم الأول ؟

أوّل من يبتسم

هو أوّلُ مَنْ ، بعدئذ ، سيضحك .

فجأة يضحك وينظر

ينظر كى لاينظر

وسط الأوراق الملتفّة

يمرُّ صوتُ الريح .

كل شيء قناع ، كل شيء ريح .

ذلك الناظر منشغل بالنظر .

إلى حيث لاينظر : ينقَلب بصره .

نحن الاثنان معاً منشغلان بالكلام

عَمَّا لَمْ يَتم فيه كلام .

هل يبدأ هذا أم ينتهى ؟

II

ثمة غيمة تمرُّ تحت الشمس

ثمّة حُزْن مَرْصودٌ للنَّاظرين .

الروح شبيهة بعبَّاد الشمس

ترى فقط مَايَقع عند قدميها

أيَّةُ ساعة وَبيلة تَلُفُّكَ

كالراية المرفرفة ؟

تَمرُّ الغيمة . والشمس تعود

فينقلب الفرح .

III

دورانُ الريح .

الريح تدور . تدورُ الريح .

فكرى حَالماً يسير معى

نَحْوَ أعالى الغابات

حتى أشعر ، بلاخوف ،

بالمرور العالى لبرودة الهواء .

حتى أعرف أنَّنى

ذاكَ الذى أردت أن أكونه

حينما سمعتُ ماقالت

الريح من كلام .

IV

على ضفّة هذا النهر

أو على حَافَّات ذاك

مصفوفةٌ تمرُّ أيّامى

مَا مِنْ شيء يَعوقُني أو يَحُثُّني
أو يمنحني حرارةً أوبرودة .

إلى النهر أنظر ، وإلى مايفعله النهر
عندما لايفعل النهر شيئاً .
أنظر إلى مايخلِّفُ من غُثاء
عندما يَمْحُو ، في مروره ،
ماترسَّب في الوراء .

أنظر وأمعن النظر متأملاً ،
لافي التيار الذي يَمرُّ
بل في ما أفكر فيه ،
إذ ما أبصره في الماء
هو تعذر رَؤية مايَمُرّ .

عبر ضفّة النهر أسير
عبر ضفّة النهر الذي يمضي إلى حيث
لا أدري .

واثقاً بتيّاره النهرى : سيان نظرى

أو عدم نظرى إليه .

٧

آخر . أن أكون دائماً آخر .

أن أسافر . أن أفقد بلداناً .

أن أعيش نظراً متواصلاً .

والروح بلا جذور .

أن أسير جنباً إلى جنب مع ذاتى

متخلّصاً من كل انتماء .

مع قلق الظفر

بالغياب الذى هو مواصلة مستمرة .

أن أسافر هكذا . يَالهُ من سفر !

فى أفكارى وحدها

يسافر تفكيرى .

ماتبقّى : سماءٌ وأرض .

لو قُدِّر لى ، ولو لم أكن أحداً ،

أن أملك على صفحة وجهى ، ذلك الصفاء العابر

الذى تملكه تلك الأشجار

لَكَانَ لِى إذن ، ذلك الفرح

الذى تملكه الأشياء فى الظاهر .

لأنَّ الفرح ابن اللحظة هو

عندما تبرد الشمس يزول .

تجدُر بى أيُّ حياة أخرى

أكثر ممَّا تجدر بى حياتى هذه

أن أمتلك تلك الحياة الغريبة

التى من الشمس فحسب تجئُ .

XII

منبوذ أنا

فى ذاتى حبسونى

بعد ولادتى

غير أننى لُذْت بالفرار .

من نفس المكان

يضجر الناس

وأنا من وجودي فى ذاتى

أليس خَليقاً بيِ أن أضجر ؟

روحى تبحث عنى ،

فى السهول والجبال ،

ليتها لاتَعْثُر أبداً عليّ .

أن أكون واحداً قَيْدٌ ،

ألاَّ أكون موجوداً هو أن أكون

أنا ذاتى .

هارباً من ذاتى أحيا ،

وأنا بذلك حيّ .

VIII

أتأمّل ما لا أراهُ

إنّه المساء ماهو مظلم يتقدّم

كُلُّ ماهو رغبة بداخلى يصطدم بجدار .

كَبيرة هى السماء فى العُلوّ

رفّاعة هى الغابة

الريح تخترق الدّغل .

ثمّت أوراق . حُضُور متمايل .

هنالك فى الجانب الآخر

يوجد كُلُّ شئ ، ما لاَ وُجود له ولافكرةَ لى عنه .

وكُلُّ غُصن متمايل

يجعل السماء أكثر شسوعاً .

بين ما أنا عليه وبين أنَاىَ

مُضْطجعاً ، ثمَّت خلط .

لا أحسُّ بشئ ، ولست حزيناً .

الحُزْنُ هو هَذا الذى أنا فيه .

IX

فوق القمح المتموِّج

شمس عاطلة تستريح .

بدون تَفَاهُم مع ذاتى ،

مخدوعاً أمضي على الدوام .

لو فى إمكانى ألاَّ أعرف البتة

عَنِّى أىَّ شئٍ

لكنتُ نسِيتُ نسيانى هذا لِذاتِى .

القمح يميس

والشمس غريبة . سيان .

الروح موجودة ، ما أقصرها

بِخيرها وشرها .

ثلاث قصائد من :

رسالة

1 – الأمير دون إنريكى

فى عرشه ، وسط سطوع الأفلاك ،
بمعطفه المنسوج من العزلة والليل
والبحرُ جَاثِياً عند قدميه والعصور الميِّتة ،
– إنه الإمبراطور الوحيد الذى يمسك فعلاً
بالكرة الأرضية بين يديه .

2 – دون خوان الثانى

ذراعاه بهيأة صليب
تَخْمُ ماوراء البحار يبدو كقمة فى سلسلة جبال .
تخم أرض يحكمها بحر آخر فيما وراء البَرّ .

شبَحُه المتوحد المخيف
يحتلُّ البحر والسماء لمجرد حضوره
ومع ذلك يبدو متهيِّباً من العالم المتنوِّع
الذى يتقدم بذراعيه ويمزِّق له اللِّثام .

3 – كتابة على قبر برطلوميو دياز

فى هذا الشاطئ النائى

يرقد قبطان النهاية

البحر نفس البحر وقد تُخطِّيت الدهشة :

لا أحد يخشاه .

عالياً يستعرض أطلس

العالم على كتفيه .

قصائد أخرى

عيد الميلاد

يولد إلهٌ . يموت آخرون .

الحقيقة لا تأتى ولاتمضى .

الخطأ يتبدَّل .

الآن لدينا خلود آخر .

لكنَّ الذى مضى كان الأفضل دوماً .

العلم أعمى يحرث تربة عقيمة .

والإيمان ، بجنون يحيا الحلم فى عبادته .

كل إلهٍ جديد هو لفظة فحسب .

لاتبحث . لاتؤمن . محجوبة هى الأشياء كلها .

❊

فى ذاتى أوُجد ، بعيداً عنّى ،

أوُجَد بمعزلٍ عَمَّن أكون وعن الظلّ

وعن الحركة التى بها أتشكل .

*

عدم وجود إله هو بذاته إله ..

ما أقلَّ ما تَدُومين : أيتها النوسط الجيا الخالدة .

*

أنامُ . أأعُودُ أم أنتظِر ؟

لا أدرى . آخَرَ كُنتُ

بين ما أنا إياه وما أبغيه

بين ما أكون وما كنتُ .

*

طبيعة شاسعة متنوعة

طبيعة كئيبة حينما

من فُسْحَةِ ضوء تمرُّ الغيوم .

فى الوقفات المهيبة

للطبيعة

تصيحُ ديوكٌ مهيبة .

*

لَقَدْ ذَهَّبتِ الشمس رأسكِ الأشقر .

ميِّتة أنت . وأنا حَىّ

مازال هناك عالم وفجر .

*

كذلك انفعالاتى

هى أشياء تحدث لى

*

أريدُ ، سيكونُ لدىَّ ،

ليس هنا ،

فى مكان آخر لا أعرفه .

لم أخسر شيئاً .

كُلَّ شيءٍ سأكون .

*

أيها المصباح الساكن الضئيل

مايضيئك ومايمنحنى النور ،

يظلُّ ينوس

بين من كنتُ ومن أكون .

سونيتاتان

لقبر كريستيان روسنكرويتز

I

أثناء استيقاظنا من حلم الحياة

سنعرف من نحن ، ونعرف

حقيقة السقوط فى الجسد ،

والسقوط فى الليل الذى حبس رُوحنا .

هل سنعرف الحقيقة كلها ،

بعدئذ ، حقيقة الكينونة كلها ،

السكون السيّال ؟

كلا : لا الروحُ ، وقد صارت حرّةً ومعروفة ،

ولا الإله ، خالقُنا ، يحتويانها فى ذاتيهما .

الله مخلوق من إله آخر أكبر منه :

هو أيضا عرف السقوط ، آدم أعلى كانَ ،

وعلى الرغم من أنه خالقٌ فقد كان بدوره مخلوقاً ؛

من أجله ماتت الحقيقة ...

لقد حَرَمها ، ما هو أبعد من روحه ، حَرَمَها الجحيم :

فى هذا العالم تتجسَّد ، هنا يوجد جسدها .

II

هنا . تائهون لا واقعيون

نحلم بالحقيقة وبما نحن إيّاه نحلم

لو رأيناها نياماً ، فمُجرّد حلم تكون

لا الحقيقة ، بل صورتها وحسب مانراه

ظلال تبحث عن جَسَدٍ نحن ،

لوعثرنا عليه كيف سنحسُّ كينونته

وكيف نتلمَّسه ؟

ظلال ، أيادي ظلال ؟ نلمِس ماذا ؟

الفراغَ نلمِسُ ، الغيابَ .

من يعتقنا من هذه الروح المقفلة ؟

من الصالة المجاورة ،

نُصغى إلى الكينونة ، لكنْ لانراها .

من سيفتح الباب ؟ ..

... هادئاً فى ميتَتِه الزائفة أمامنا

الأب روسكروث العارف الصموت ،

بالكتاب مغلقاً فوق صدره المهيب .

ألبرطو كا ييرو

Alberto Caeiro DA Silva

ولد فى لشبونة يوم 16 أبريل 1889 ، ومات مسلولاً فى لشبونة أيضاً ، عام 1985 .

أمضى الشطر الأكبر من سنواته السبع والعشرين فى ضيعة صغيرة واقعة على ضفة المجرى السفلي لنهر التاج ، قرب العاصمة . وقد أمكنه ، بفضل إيرادات متواضعة ، أن يتفرَّغ ، فى عزلة كاملة ، لتأمل الطبيعة ، مهووساً عبر نثرية أشعاره « ببساطة » و « طبيعيّة » كل تلك الأشياء التى « يراها الإنسان ولا يَراها » . قائلا عن نفسه : « لستُ بشاعر : أنا فحسبُ أرى » .

تلامذته – رييس ، كامپوس ، پاشيكو . أنطونيو مورا ، وپيسوا أيضاً – يعتبرونه « شاعراً طبيعياً » . پيسوا يؤكِّد عَدَم تلقِّيه لأى تكوين دراسى لامتوسط ولاعال ، ويقول عنه : « إنه يكتب البرتغالية بشكل سئ » .

أما رييس فيصفه بالأميّة ، ومع ذلك ، وكما يشير أرنالدو سراڤيا فقد قرأ ، دون أدنى شك ، الشعراء

الرعويين ، كما قرأ فرجيل (رغم نفيه لذلك فى إحدى قصائده) مع فلاسفة متَباينى المشارب ، إضافة إلى ثيساريو بيردى وحتى ويتمان (حسب إدواردو لورنسو) .

عملياً لاتوجد أية معلومات بيوغرافية عن كاييرو ، « قصائده هى كل حياته » حسب ريكاردو رييس صديقه المفضل . أما ألبارودى كامپوس الذى كان مقيماً حينئذ فى إنجلترا فيشير إلى أن المعلّم كاييرو قد وجد نفسه وحيداً أيضاً ساعة موته : فرييس كان قد عاد إلى البرازيل ، وپيسوا كَانَ فى لشبونة « كَمَنْ لم يكن موجوداً : يُحِس الأشياء بدون أن يتحرك ، ولا حتى من الداخل » .

يتكوّن الأثر الشعرى لألبرطو كاييرو من ديوانين صغيرين : « راعى القطيع » و « الراعى العاشق » ، المؤرَّخين من طرف الشاعر مابين 1911 و 1914 . وإن كانا قد كُتِبا فى الواقع طوال 1914 - 1915 ، بالإضافة إلى مجموعة متفرِّقة من الأشعار التى تولّى رييس ضَمَّها من بعدُ تحت عنوان « قصائد غير متجانسة » [١] .

(١) بعض هذه القصائد مؤرخ بعد وفاة صاحبها مِما فاجأ العديد من النقاد .

مرحى ، بِراعى القطيع

ماذا تَقَوُل لك الريح

عند هبوبها

هنالك جنب الطريق

إنها الريح التى تمرُّ

ولطالما مَرَّت من قبل

وعليها أن تمرَّ من بعد

وأنت

ماذا قالت الريح لك أنت ؟

أشياء كثيرة تقولها

الريح لى

تكلمنى عن أشياء أخرى كثيرة

عن ذواكر ونوسطالجيات *

وعن أشياء لم توجد قط

« أنت لم تسمع البتّة مرور الريح .

الريح إنما تتحدث فحسب عن الريح .

محضُ كذب كُلّ ما سمعتَ من حديث .

والكذب فيك أنت بالذات » .

* ترجمة غير دقيقة لمفردة لاتوجد إلا فى البرتغالية هى : Saudodes . بعضهم يترجمها خطأً بـ« سوداوية » الأفضل الإبقاء على نوسطالجية الأقرب دلالياً وإيحائياً إليها .

رعاة فرجيل يعزفون على الناى
وأشياء أخرى

وينشدون أغانى أدبية عن الحب

(عَدَا هذا ، أنا لم أقرأ فرجيل .

لماذا ينبغى لى أن أقرأه ؟)

لكنَّ رعاة فرجيل ، المساكين ، هم فرجيل ذاته

أما الطبيعة فجميلة على الدوام وقديمة .

خفيفة ، خفيفة ، خفيفة جداً

ريح خفيفة جدًا تَهبُّ
ثم تَمرُّ ، دائماً خفيفة جداً
وأنا لا أعرف فِيمَ أفكر
ولا أسعى إلى أن أعرف .

أحياناً ، فى أيّام النور الكامل والصحيح

عندما تمتلك الأشياء كل الواقعية التى تستطيع
امتلاكها ،
أتساءَل على غير عَجَلة :
لِمَ لا أعْزُو حتى الجمال
للأشياء .

أوَ تمتلِك الوردة ، بالمصادفة جمالاً ؟
والثمرة ، أجميلةٌ هى مصادفة ؟
كَلاّ ، إنَّ لها وجوداً وشكلاً
ولوناً فحسب .
الجمال هو اسم شئ لاوجود له ،
وهو ما أمنحه أنا للأشياء مقابل ماتمنحُنِيه من
بهجة .

الجمال لايعنى أيَّ شئ

لماذا إذن أقول عن الأشياء إنَّها جميلة ؟

أَجَلْ ، حتىَّ أنا الذى أحيا فقط من فعل الحياة ذاته ،

لاَ مَرْئيَّةٌ تأتى للقَائى أكاذيب الإنسان

تُجاه الأشياء ،

تُجاه الأشياء التى هى فحسب فى حالة وجود .

ما أصعب أن تكون أنت ذاتَك وألاَّ ترى كُلَّ ما هو مَرْئى !

هناك شعراء صُنّاع

ويشتغلون على الأشعار

كما يشتغل النجَّار على الطَّاولات .

كم هو حزين ألاَّ نعرف الأزهار !

ثم إنَّ عليهم أن يَضَعُوا البيت فوق البيت ،

كَمَن يشيِّد جداراً ،

وأن ينظروا إلى ماهو جيِّد ، كى ينتزعوا الردئ ،

بينما المكان الوحيد المصنوع هو الأرض برمتها ،

وهى دوماً جيِّدة ، وإن تغيرت ، هى ذاتها على الدوام ..

لا أفكِّر فى هذا كَمَنْ يفكِّر ، بَلْ كَمَنْ يتنفَّسُ ،

وأنظر إلى الأزهار ، فأبتسم ..

لست أدرى إن كانت تفهمنى

أو كنت أفهمها

لكننى أعرف أن الحقيقة كامِنَةٌ فيها وفِيَّ ،

وفى ألوهيَّتنا المشتركة ،

ألوهية أن نُسلِمَ أنفسنا للحياة عبر بقاع الأرض ،

أن نَدَع أَنْفُسنا تُحْمَل على الأذرع عبر المحطَّات المبتهجة

أن نَدَعَ الهواء يُنَوِّمُنَا مُغَنِّياً ،

وألاَّ نمتلك أيّ أَحْلام لنا فى منامنا .

مثل لطخة هائلة لِنَارٍ قذرة

الشمس الغاربة تتباطأُ خلف الغيوم المتبقيّة ،

فى الهدوء الشامل للمساء صَفِير مُبَهَم يأتى من الأقاصى

صَفِير قِطار بَعيد رُبَّما .

نوسطالجية مبهمة تحملها هذه الهنيهة إلىَّ

ثَمَّت رغبةٌ هادئة

تظهر ثُمَّ تختفى .

يحدث أيضاً أن تتشَكَّل لزهرة جَدْولٍ

أحياناً فقاعاتٌ من ماء

تَتَوَالَدُ وتتلاشى

بدون أن يكون لها أىُّ معنى

عَدَا أنَّها فُقاعات من ماء

تَتَوالَد ثم تتلاشى .

ثمت الكثير من التفكير الميتافيزيقى

تمت الكثير من التفكير الميتافيزيقي
فى انعدام التفكير فى أىِّ شئ .

ماهى الفكرة التى لدىَّ عن العالم ؟
ماذا أعرف أنا عَمّا لدى مِن أفكار عن العالم ؟
سأفكِّر فى هذا كله
عندما أسقط مريضاً .

أيّة فكرة عن الأشياء لدىَّ ؟
أىُّ تَصوُّر عن النتائج والأسباب ؟
ماذا عن تأمُّلاتى حول الله والروح
وخلق العالم ؟
لست أدرى .

التفكير فى أمور كهذه معناه
عندى أن أغمض عينىّ وألاّ أفكّر فى أى شىء
وأن أسدل الستائر على نافذتى
(التى لاستائر لها)
سرٌّ الأشياء ؟أَ للأشياء سرّ ؟
مِنْ أين لى أن أعرف ماهو السر ؟
السِّرُّ الوحيد هو أنّ أحداً مّا يفكر
فى وُجُودِ سرّ .

أمّا من يقبع تحت الشمس مغمضاً عينيه ،
فإنّه يَكُفُّ عن إدراك ماهية الشمس
مفكّراً فى أَمُور مُفْعمةٍ حرارة ،
وإذ يفتح عينيه ويحدِّق فى الشمس
لايستطيع ، حينئذ ، أن يفكر فى أىّ شىء
لأنّ نور الشمس أَغْلَى من أفكار
جميع الفلاسفة والشعراء .
نور الشمس لايَعِى ما يفعل .
لذلك فهو لايخطئ وهو عميم وكُلُّه خير .

هل للميتافيزيقا وجود ؟
أيّة ميتافيزيقا عند تلك الأشجار
فى أن تكون خضراء وَوَارفة .
تُنبتُ أغصاناً وتَهَبُ الثِّمار فى حِينها .

أوَثمَّت ميتافيزيقا أفضل مِمَّا لديها ؟
ألاَّ تعرف لِماذا تحيا وألاَّ تعرف مَالاَتعرف ؟

« البنية الحميمة للأشياء ... »
« المعنى الحميم للكون ... »

بَاطِلٌ هذا كله وليس له معنى .
غير معقول أن يَتمَّ التفكير على هذا النحَّو .
لأنه شَبِيه بالتفكير فى العِلَل والغايات
بينما الشمس مشرقة مع بداية الصباح
وعلى جوانب الأشجار تتوغَّلُ الظلال
فى اللون الذهبى المتُكاسِل الصقيل .
التفكير فى المعنى الحميم للأشياء

معناه الزيادة فى المعنى الحميم للأشياء
كَأَنْ نحمل إلى النبع كوباً من ماء ،
المعنى الحميم الوحيد للأشياء
هو عدم امتلاكها لأىٍّ معنى حميم على الإطلاق .

لا أُومن بالله لأنَّنى لم أَرَه قَّط .
إِن كان يرغب فى أن أوُمِنَ به ، فسيأتى ، ولاشك ، للتحدث معى ،
وإذ يجتاز الباب للدخول إلى
المنزل سيقول : ها أنذا.

(أحيانا يكون لهذا كله وَقْعٌ مُضْحكٌ
فى آذان أولئك الذين ، بسبب جهلهم بماِهية النظر
لايفهمون من يتحدَّث عن الأشياء
بالطريقة التى تجعلنا نتعلم عندما نمعن فيها النظر ..)
لكن إذا كان الله هو الأزهار والشجر
الجبال، الشمس والقمر

فَأنا إذن مؤمن به

مؤمن به فى كل لحظة

وكُلُّ حياتى قُدَّاس وصلاة له

كلها اتصال معه بالسمع والبصر .

لكن إذا كان الله هو الشجر والزهر

الجبال والشمس والقمر

فلماذا أَدْعُوْه الله ؟

لِمَ لا أسميه زهوراً ، أشجارًا ، جبالاً

وقمراً وشمساً .

إذا كان موجوداً كى أراهُ شمساً وقمراً ،

أزهاراً ،جبالاً ، أشجاراً ،

وإذا كان قد تعيَّن لى كذلك

فلأنه أرادنى أن أتعرَّفَه باعتباره

جبلاً ، شجرة ، قمراً ، شمساً وزهراً .

ولذلك ، فأنا خاضع له .

ماذا أعرف أنا عن الله ؟

« أكثر مِمّا يعرف الله عن نفسه ؟ »

خاضع له ، بعفويّة ، أعيش حياتى

كمن يفتح عينيه لينظر بهما .

وأسـمـيـه القـمـر ، الشـمـس ، الأزهار والأشـجـار والجبال .

وأحبُّه بِدُون أن أفكِّر فيه .

وأفكِّر فيه بِبَصَرى وسمعى ،

ومعه أمضى فى كُلِّ الأوقات .

أمس مساء

كان أحد ساكنة المدن

يتحدَّث بباب الفندق

معى تحدَّث أيضاً

عن العدالة تحدَّث ، عن الكفاح من أجل العدالة

عن العمَّال الذين يكابدون ،

عن العمل المتواصل الشاق ، عمَّن يتضوَّرون جوعاً ،

تحدَّث عن الأغنياء الذين يديرون ظهورهم لهذا كله .

حينمَا استدَار نحوى نَاظرًا إلى الدموع فى عينى

تبسَّم ، ظَانًا أننى أشعر بنفس مايشعر به من حقد

وبالشفقة نفسها التى يحسِبُ أنه يشعر بها .

بالكاد كنتُ أصغى إليه !

ماذا يَعْنينى أنا من أمر الناس

وما يعانونه أو ما يَخُالون أنهم مُعانونه ؟

لوكانوا مثلى لما عَانوا من شئ .

كل كوارث الدنيا تأتى

من تعذيب بعضنا للبعض

بنيَّة فعل الخير أو نيّة فعل الشر .

أنا حسبى نفسى

حسبى الأرض والسماء

أن أرغب فيما هو أكثر

معناه أَنْ أفقد كل هذا المُتاح لى

معناه التعاسة الأكيدة .

فى الحقيقة ، كنت مستغرقاً فى التفكير ، بينما

ساكن المدينة يتحدث ، (وَهو ما دفعنى

إلى التأثُّر حتى البكاء) ..

فى أنَّ صَوْتَ أجراس القطعان النائى

لايشبه ، فى هذه العشيَّة بالذات ،

أجراس تلك الكنيسة التى تُصيخْ السَّمْعَ

لقُدَّاسها الزهورُ والقطعانُ

والأوراحَ الساذجة الشبيهة بِروحى .

لأحْمَدَ الله على أننى لست بالرجل الصالح

لأنَّ أنا ىَ طبيعيّة،

هى أنا الزهور والأنهار التى تواصل سَيْرَها

منشغلة ، بدون أن تدرى ،

بالأزهار والجريان فحسب ،

تلك هى وظيفة الوجود الوحيدة .

الوجود المحض .

ممارسة الوجود بدون تفكير فى الوجود .

سرُّ الأشياء

أين يُوجَد هذا السرُّ ؟

لو يظهر ، لنا نحن ، بالأقل ،

على أنه سرّ .

والنهر ؟ ماذا يعرفه النهر عن هذا ؟

ماذا تعرف الشجرة ؟

وأنا الذى لستُ خيراً منهما

ماذا أعرف ؟

حينما أنظر إلى الأشياء أضحك باستمرار

مفكِّراً فيما يفكر الناس بشأنها

أضحك بصوت النهر بَارداً

يَسيلُ على الحصى .

المعنى السري الوحيد للأشياء

هو أنَّها خالية من أىّ معنى سري

« المعنى الخفىّ » هو أغرب من كل غريب

أغرب من أحلام الشعراء

ومن أفكار الفلاسفة

ذلك أنَّ الأشياء فى الواقع

هى فحسب ماهى عليه

وهى لاتنطوى على أىٍّ موضوع للفهم .

بـهذه الطريقة أو تلك

بمهارة أو بدون مهارة ، أكتب

قائلاً ، ما أفكّر فيه أحياناً ،

بَيْنَ بين أحياناً أخرى وبدناءَة ،

أكتب ، لا إرادياً ، أشعارى

كما لو كانت الكتابة فِعْلاً مُكوّناً من حركات ،

كما لوكانت الكتابة فعلاً لصيقاً بى ،

كتَعرُّضى لنور الشمس أثناء خروجى .

أسعى إلى ترجمة إحساسى

بدون تفكير فيما أحس ،

أسعى إلى إنجاب الكلمات عبر التفكير

بدون استخدام لتيَّار التفكير فى الكلمات .

لا أتوصَّلُ دائماً إلى الإحساس

بما عَلَيَّ أن أحسَّه

هُو ذَا تفكيرى ، بعد تطواف طويل ،

سابحاً يقطع النهر ،

مثقلاً بِالثياب التى كَسَاهُ البشر بها .

أسعى إلى التجرُّد مِمَّا تعلَّمت ،

إلى نسيان نمط التذكرُّ الذى عَلَّمُونيه ،

إلى محو الحبر الذى به دَهَّنوا أحاسيسى ،

إلى تحرير انفعالاتى الحقَّة أسعى

إلى أن أتصفَّى وأكون أنا – لا ألبرطو كاييرو ،

بل ذلك الحيوان الإنسانى ، نتاج الطبيعة .

هكذا أُواصل الكتابة ،

أريد الإحساس بالطبيعة

لاَكَما أُحس بها كإنسان

بل على نحو طبيعى خالص ، ليس غير .

هكذا أكتب ، بشكل جيّد أو ردىء ،

مصيباً فيما يسعى إليه قولى

أو مخطئاً ، أتعثَّر هنا . أنهض هناك ،

مواصلاً طريقى ، طريق أعمى عنيد .

حتى بهذه الطريقة أَنَا أَحَد مًا :

أنا مكتشف الطبيعة

وأرغون الأحاسيس الصحيحة ،

أَهَبُ الكون كوناً جديداً ،

لأننى أَهَبُه كونه الطبيعى .

هذا ما أحسه وأكتبه

مُدْركاً ، بوضوح ، وبدون حاجة إلى استخدام النظر ،

أنها الخامسة صباحاً ،

وأنَّ الشمس لم تَرْفَعْ بَعْدَ هَامَتَها

فوق جدار الأفق ،

وإن كانت رؤوس أصابعها ، تظهر اللحظةَ ،

ممسكةً بحافّة الجدار الأُفُقى المكتظ بالجبال الخفيضة .

من أعلى نافذة فى منزلى

أُلوِّحُ بمنديل الوداع لأشعارى
وهى فى طريقها إلى الناس .

لست بالفرحان ولا بالحزين
هذا هو مصير الأشعار .
لقد كتبتها وعلىَّ أنْ أعرضها للجميع .
لاتُوجَدُ طريقة أخرى ،
فلاالوردة قادرةٌ على إخفاء لونها
ولا النهر مجراهُ
ولا الشجرة ثمارها .

لقد ابتعدت الآن أشعارى
مثل عربة كبيرة ،

وأنا بغير إرادة

منى أشعر بالحزن

كما لو أنَّ الجَسَد يؤلمنى .

من سيقرأ أشعارى ؟

صوب أيّة أيْدٍ ستّتجه ؟

زهرةٌ أنَا قطفونى من أجل مُتْعة الأعين

شجرةٌ نَزَعُوا ثمارَها للأفواه

نهرٌ أنا وَقَدَرُ مَياهى أن تُفارقنى ،

مقهور ، ومع ذلك ، تقريبا ، مسرور

كَمَنْ أضْجَرتْهُ دَيمَوُمة حزنه .

لقد ذهبتْ

ذهبت تماماً ، هكذا ...

تذهب الشجرة ثم تبقى منثورة فى الأرض

تذوى الزهرة فيمكث سَحِيقُها على الدوام

يوغل النهر فى البحر ومياهه دوماً هى نفس المياه .

وأنا ذاهب وسوف أبقى ،

ذاهب ، مثلما الكون ، لأبقى .

أدخل ثم أغلق النافذة

يأتون بشمعة إلىَّ قائلين : ليلة سعيدة .

صوتى مبتهج بهذه الليالى الرائقة .

ليت حياتى هكذا على الدوام :

النهار مشمسا كان أم ناعم المطر

أو حتَّى بإعصار نهاية العالم ،

المساء العذب والشرائط التى تَتَالى

متفحِّصةً عبر النافذة .

النظرة الصديقة الأخيرة للشجرة الساكنة .

وبعد ... إغلاق النافذة ، فإيقاد الشمعة

لاقراءة ، لانوم ، لاتفكير فى شئ ،

وحده الإحساس

بسريان الحياة بداخلى مثل قاع نهر .

وفى الخارج سكون هَائل شبِيه بإله نائم .

تقول : أنت أكبر من حجر أونبات

تقول إنك تحس وتفكِّر وتعرف
إنك تفكِّر وتحُسّ .
إذن ، أَفَيَكتُب الحجر قصائد ؟
أَلَدَى النبات أَفْكَارٌ عن العالم ؟

أَجَلْ ، ثمَّة فرق .
لا الفَرْقَ الذى تحَسْبُ أنتَ :
امتلاكى لوعى مّا ، لايجُبرنى عَلَى امتلاك
تصوُّرات عن الأشياء :
بل يجُبرنى فحسب على أن أكون واعياً .
أأنا أكبر من صخرة أو نبات ؟
لست أدرى . أنا مختلف ، أَجَلْ ،

ولست أدرى أفى هذا ما هو أعلى أو أدنى .

هل امتلاك الوعى أرفع من امتلاك اللون ؟

أحياناً ، نعم ، أحياناً ، لا .

أعرف فقط أنَّ هذا مختلف ، مختلف وحسب ،

ما من أحد بقَادرٍ على البرهنة

على ماهو أكثر .

أعلم أنَّ الحجر واقعى

وأَنَّ النبات موجود ، وهذا لأنهما معاً موجودان بالفعل

أعلم لأنَّ حواسىّ تَقُولُ ذلك .

أعرف أيضاً أنَّنى موجود .

أعرف ذلك لأنَّ حَواسَّى تَقُول لى

وإن كانت تقول ذلك بدرجة وضوح أقل

مِمَّا عن الحجر والنَّبات .

هذا كل ما أعرف .

أجل ، أنا أكتب قصائد ، أَمَّا الحجر فَلا ،

أنا أملك أفكاراً عن العالم لايملكها النبات .

بَيْد أنَّ الأحجار لَسْنَ بِشَاعراتٍ :

الأحجار أحجار ،

والنباتات ليست عُقولاً مفكرة

بل نَباتاتٌ وحسب ،

فَهَلْ أقول بسبب هذا إننى أرفع منهنَّ مرتبة ؟

بإمكانى أن أقول العكس كذلك .

غير أننى لا أقول هذا ولا ذاك .

أَقُولُ عن الحجر : إنَّه حجر

وعن النبات : إنه نبات

وأقول عن نفسى : كائن ، لا أكثر.

هل يمكن أن يُقال ماهو أكثر ؟

كلّ يوم أكتشف واقع الأشياء المرعب:

كل شيء هو ماهو .

كم يبدو صعباً أن يُقال هذا :

كَمْ يَسُرُّني ، كَمْ يكفيني .

لأكون كاملاً

حسبي أن أوجَد .

كتبتُ قصائد كثيرة

وعليَّ بالطبع أن أكتب أخرى
كلُّ قصيدة لى تَقُول الشئ نفسه
كل قصيدة لى هى شئ مختلف .
كل شئ هو طريقة مختلفة لقول نفس الشئ .

أحياناً أرى حجراً .
أعرف أنَّه لايُحِسُّ
لا أغالط إذ أَدْعُوه أخى
وأحبه لأنَّه حجر ،
أحبُّه لِعَدم إحساسه ، لِعَدم شَبَهِهِ بى .

أحياناً أصغى لهبوب الريح

أُحِسُّ أَنَّ لى قيمةً لأنَّنى وُلدتُ
فقط لأصغى إلى هبوب الريح .
لا أعرف ماسيفكِّر فيه الآخرون
عندما يقرؤون هذا .
أعتقد أنَّه ينبغى أن يكون جيِّداً
لأنَّ تفكيرى فيه يَتمُّ بدون جهد ؛
أفكِّر فيه بدون تفكير فى أَنَّ آخرين
سوف يقرؤون تفكيرى ،
بدون أفكار أفكِّرهُ ،
مثلما تقوله كلماتى أقوله .

ذات مَرَّة لقبُّونى بشاعر المادة

فوجئت تماماً : لم يَسْبِق لى التفكير البتَّة
فى إمكان مَنْحهم إيَّاى هذا اللقب أو ذاك ،
لستُ حتى شاعراً ... ؛ أنظر فحسب .
إذا كان لِما أكتب قيمة . فالقيمة ليست لى .
القيمة موجودة هناك ، فى أشعارى .
وهى كُلُّها مستقلَّة مطلقاً عن إرادتى .

لو فجأة متُّ

بدون أن أتمكَّن من نشر أيِّ كتاب ،
دون أن أرى المظهر الذى ستتخذه
أشعارى بحروف مطبوعة .
أتوسَّل إليها ألاَّ تغتمَّ ،
إِنْ كانت ستغْتمُّ بسبب هذا ،
لَوْ فَعلتْ ذلك ، فهو ما ينبغى أن تفعل .

حَتَّى لَوْ لَمْ يَطْبَعْ أشعارى أحد .
فسَيَكُونُ لها حَظُّها من الجمال ،
إِن كانت جميلة .

لا بُدَّ أن تُنشر إِنْ كانت جميلة ،
فالجذور تحت الأرض تحيا ،

لكن الأزهار مخلوقة للهواء الطلق ولكل الأنظار .

هكذا هى ، مامن أحد قادر

على جعلها غير ما هى .

لَوْ فجأة متُّ ، فلتستمعوا إلى هذا :

ما كنتُ إلاَّ طفلا كان يلهو

وَثَنياً كنتُ كَمَا الشمس والماء ،

على الدين الذى وحدهم البشر يجهلونه .

سعيداً غادرتُ لأنَّنى لم أطلب شيئاً

ولا بحثْتُ عن شئ ،

ولا عَثَرتُ على شئ عَدَا

أن لفظة تَفْسِير لا تُفسِّر شيئاً .

رغبتى كانت أن أمكث قبالة الشمس

أو تحت المطر .

قبالة الشمس حينما تشرق الشمس .

تحت المطر حينما تمطر السماء .

(ليس أبداً على غير هذا النحو)

أن أحِسَّ بحرارة وبردٍ وريح

وألاَّ أمضى إلى ماهو أبعد .

لو أرادوا كتابة سيرتى

بعد موتى فليس ثمة ماهو أسهل :

يوجد يومان – يوم ميلادى ويوم وفاتى –
كُلُّ مابينهما مِنْ أيَّام لا يَخُصُّ أحداً سواى .

من السهولة بمكان التعريف بى ،
لقد عشتُ عيشةَ فانٍ ،
بلا عاطفية أحببتُ الأشياء
لَمْ تكن لدىَّ رغبات غير قابلة للتحقيق .
لم تَعْمَ بصيرتى .
والسمع لدىَّ كان رفيقاً للنظر .
أدركتُ أنَّ الأشياء واقعية ومختلفة .

بالعين لا بالتفكير .

إدراكها بالفكر مَعْناهُ جعلها متماثلة .

ذَاتَ يوم حَلَّ بى النوم كأىِّ مخلوق .

أغمضتُ عينى مستغرقاً فى الكرى .

عَدَا هذا كنتُ شاعر الطبيعة الأوحد .

ريكاردو رييس

Ricosdo Ries

وُلِدَ فى أوپرطو فى 19 نوفـمـبـر 1887 . ويُجـهل تاريخ وفاته درس فى ثانوية يسوعية . ثم تفرغ فيما بعد لدراسة فقه اللغة الكلاسيكية مع متابعة دراسة الطب ؛ حيث تخرج منها دكتوراً ممارساً حسب البعض – عنـدما تعـرَّف عليـه كاييرو وكامپوس كان طبيباً شاباً منكباً على الشعر ومهتماً بمسائل مُتّصلة بنظرية الأدب .

معتقداته الملكية جرَّت عليه مضايقات كثيرة اضطر معها إلى اللجوء إلى المنفى الاختيارى فى البرازيل ، إبتداءًمن 1919 قام بعدّة أسفار إلى البرتغال جدَّد فيها الاتصال بصديقه القديم ألباورودى كامپوس ، مع احتفاظه بصداقة حميمة مع كاييرو معلمه فى الأدب . لم يتعرّف على فرناندو پيسوا شخصياً .

يمثل رييس بالنسبة إلى پيسوا شاعر « التربية الذهنية » المدثَّرة « بموسيقى شخصية » مع نوع من

« النقاء اللغوى المفرط » .

أمَّا كاميوس فيرى أنَّ تركيباته الكلاسيكية تعكس هَوَس الشاعر من أجل البقاء دائماً فى أعلى مستويات الشعر ، وأنَّ التعبير شعرياً من موقع « العُلوّ » ينتج شعراً منغلقاً فى « فضاءِ الذُّرى المختزل » . وفى موضع آخر يعيب على رييس كونه يرغم أحاسيسه على أن تُدَسَّ فى أبياتٍ من ستّة أو سبعة مقاطع . وإن كان يرى فيه ، رغم هذا ، « شاعراً كبيراً – إن كان يوجد فى هذا العالم شعراء خارج صمت قلوبهم » .

إنَّ القصيدة بالنسبة إليه « هى موسيقى نصنعها بالأفكار ، أى بالكلمات تبعاً لذلك ، كلما كانت أكثر برودة كانت أكثر صدقاً » .

يتكوَّن الأثر الشعرى للدكتور رييس من 727 نشيداً أغلبها قصير . الأول مؤرَّخ فى يونيو 1914 وهو مُهدى لمعُلِّمه كاييرو .

أمَّا الأخير ففى 23 نوفمبر 1935 ، أيام قلائل قبل موت فرناندو پيسوا يقول فيه : (مازلت على قيد الحياة/ غير مكترث بأحد أنَا مَنْ يجبر الجميع على الصمت : أنا الذى يتكلم) .

أحب ورود حديقة أدونيس

أحب تلك الورود المتقلّبة ، ورود ليديا .

فى اليوم نفسه الذى

تولد فيه تموت :

نور خالد نهارها ، به تتألق ، وفيه تحترق .

وقبل أن تختفى عربة أپولو المجنَّجة

تموتُ .

لنجعل من ليديا حياتنا ، حياة يوم واحد .

لِنَتَنَاسَ أنَّ الليل

موجُودٌ قَبْلَ وبَعْدَ القليلِ من

الزمن الذى نَدُومه .

أنا لا أغنِّى الليل

ففيه يتوقَّف غنائى .

الشمسَ أغنى .

لا أتجَاهل مَا أنْساه

من أجل نسيانه أُغَنِّى .

لو كان بإمكانى خارج الحلم ،

إيقافَ عَدْو الشمس ، لو أمكننى

أن أتعرَّف ذاتى

مجنوناً ، توأماً

للساعة الخالدة .

لاَ التذكُّر أريدُ

ولا تَعرُّفَ ذاتى .

حَسْبى أن أرى ما نحن إياه .

من أجل أن نعيش

حَسْبنا أن نجهل أننا نعيش

مانحياه مَعَنا يعيش كل لحظة

وإذ نعيشه ، معنا يموت :

حينما يمرُّ ، نعلم

أَنَّنا الذين نمضى .

بدون قدرة ، معرفتنا لاشئ .

الحياة الأفضل هى

تلك التى تمرُّ بدون أن تقاس .

آلهةٌ تمَرُّ ، مخلِّصون إلهيون

تمرُّ أحْلاَمٌ مُخلِّصة بدورها :

الأرض هامدة قاسية .

لا آلهةً أريد ، ولا مخلِّصين ،

ولا مُثُلاً باطلةً بورودها : مالدىَّ

يكفى ، ماذا أريد أكثر ؟

أن تكون كبيراً هو أن تكون كاملا :

لاتُبالغ ، لن تستطيع شيئاً .
كاملاً في كل شئ : هو كونك أيضاً ،
كبيراً ، فيما هو صغير .
هكذا القمر كُلُّه ، في كل بحيرة ،
يَسْطَع : حيّاً في العلوّ .

لا أطلب من الآلهة

سوى أن يهبونى ألاَّ أطلب منهم شيئاً .
عبودية هى السعادة .
نَيْرٌ هو الحظ :

مُضْطَهَدٌ هُو كُلُّ يَقِين .
لاساكن ولامتحرِّك ، معلَّق فى مَوْجة الزمن ،
لتكن كينونتى متطابقة مع ذاتها .

ليديا : جاهلون . غرباء نحن

هناك حيث نَطأ الأرض

ليديا : جاهلون . غرباء نحن
هناك حيث نموت .

الكل غريب ويتكلم لغة غريبة .
ضد الشتيمة والضَّجيج
نصنع مِنْ ذواتنا صومعة .
الحب . ما الذى يريده أكثر ؟
بيت قربان مقدّس مِن أجلنا .

يحيا بلاساعات

إذا ما قيس ثقلٌ

وهو يُقَاس كُلَّما فكَّر .

فى جريانه الملتبس ، مثل النهر ،

موجاتُه هى ذاتُه . أَنْتَ

تَنْظر إليه وهو يَمُرُّ وأثناء

النظر يَصْمت .

الأزهار التى أقطعها أو أبقيها

لا أُغَيِّرُ مُصِيرَها .

واصلة هى الطريق التى أتابعها ،
وَلَوْ لَمْ أُوَاصِلْها .

لَسْنَا بِشَىْءٍ ذِى وَزْن ،
بَاطِلٌ مَا نَحْن إيّاه .

يستطيع القدر أن يمنع عنّى كُلَّ شئ

سوى أن أراه : رواقى بدون فظاظة .

حرفاً حرفاً ، سأتلذَّذُ بالحكم

الذى حَفَره القدر .

لا أدرى مِمَّن جاءنى تَذكُّر ماضىً

آخَرَ كنتُ ، لاَ أكادُ أتعرَّف على ذاتى

عندما أستشعر مع روحى تلك الروح الغريبة

التى أتذكَّرُها ساعتئذ .

مِنْ يوم لآخر ، سوف نهجر أنفسنا

لاشئ مؤكداً يربطنا بذواتنا

نحن هُمْ ، مَنْ نحن الآن ؟

ماكُنَّاهُ هو ما يُرى من الداخل .

رعية لامجدية من كواكب مهيمنة

مثلى مسافرة ، بلا حب أو رغبة ،

فى سجن أَنَاى أحيا ، حياتى ملكى

لأننى هى ... لكن مع ذلك ، أتحرَّر

من تفكيرى محدّقاً فى النجوم ،

سيِّدات الأعالى ، المجبرات

على السطوع وعلى تركنا ننظر إليهن . شساعة فارغة ، أبدية متصنَّعة

(موزونة بالأعين !)

أينبغى أن توهَب الحرية لمن لايملكها ؟

تحت وصاية خفيفة

لآلهة لامبالين
أريد استهلاك الساعات الممنوحة ،
ساعاتى حتى وهى ساعات مقترضة .

إذا لم أكن قادراً على شئ
ضِدَّ ما مَنحَوُه لى من كينونة
فليهبنى القَدَر أنَفتَه على الأقل :
السلم مقابل هذا المصير .

لا أريد الحقيقة
الحياةَ فقط أريد .
الآلهة يَهَبُون الحياة ،

لايهبون الحقائق

ولايعرفون ماهى الحقيقة .

تَوِّجُونى بالورد

توِّجُونى فعلاً بالورد .

بِوَرْد ينطفئ

على جبْهةٍ سريعة الانطفاء :

حسبيِ أن

تتوِّجونى بالورد

وبالأوراق القصيرة

حسبيِ .

بسـرعةٍ يمرُّ كُلُّ مـايمُرّ

أمام الآلـهة شـابٌ يموت

كلُّ مـايموت . قليل هو كل شـئ !

لاشـئ يُعرف ، كل شـئ يُتخيَّل .

طوِّق بالورد ذاتك ، اعشـق ، اشـرب

واصمت . ماعدا ذلك لاشـئ .

أنتم ، أيها المؤمنون بكل مسيح ومريم

يامن تعكرٌون مياه ينبوعى الصافية
من أجل أن تقولوا لى فقط
بأنَّ هناك مياهاً أخرى .

مستحماً فى المروج فى أحسن الأوقات
لماذا تحدثوننى عن مناطق أخرى ،
إذا كانت مياه ومروج الهنا
تروقنى ؟

الآلهة منحتنا هذا الواقع .
ولكى يكون واقعاً أجود منحناهُ خارجياً .

ماذا يمكن لأحلامى أن تكون
سوى صنيعة للآلهة .

دَعُوا لى واقعية هذه الهنيهة
دَعُوا لى آلهتى الهادئين المباشرين
الذين يؤثرون الإقامة فى الوديان والمروج
على الأماكن الغامضة .
دعوا لى هذا المرور الوثنى بالحياة
مَصحوباً بالقرطمانات الرقيقة
التى من خلالها تُقدِّم أَسَلات الضِّفاف
اعترافها للإله پان .

فَلْتَحيوا داخل أحلامكم
ولْتَدَعُوا لى المذبح الخالد حيث عِبادتيِ
حيث الحضور المنظور
لآلهتى الأقرباء .

ياذَوى التطلُّعات اللامجدية إلى ماهو أفضل من

الحياة ،

دَعُوا الحياة للمؤمنين الأكثر قِدَماً

من المسيح وصليبه

ومن مريم وبكائها .

سيرسة ، سيدة الحقول تُسلِّيني

وأپولو وفينوس ، وحَتَّى أورانوس الشيخ هنا معي .

ألبارودى كامپوس

وُلد فى طابيرا Tavira ، الميناء البحرى لـ Algarve يوم 15 أكتوبر 1890 . لم يُعيَّنْ يوم وفاته الذى لاينبغى حتماً أن يكون سابقاً لشهر أكتوبر 1935 .

بين پيسوا وكامپوس ، انعقدت أواصر علاقة صداقة متينة ، إذ كثيراً ماخاطب الأول الثانى بعبارات وديّة غير مألوفة لديه مثل « ولدى » و « صديقى المسكين التعس » . إن كامپوس هو الپيسَوِىُّ الأكثر پيسوية من پيسوا .

بعدم إتمامه دراسته الثانوية انتقل كامپوس إلى إنجلترا لدراسة الهندسة البحرية ، ثم عمل سنوات عديدة ، من بعد ، فى مؤسسة بناء السفن فى نيوكاستل . فى سنة 1934 عاد بصفة نهائية إلى لشبونة ليتفرغ للأدب بعدما تخلى عن مهنة الهندسة .

كان كامپوس خلافاً لأُسْتَاذه كاييرو وصديقه رييس ، ميّالا إلى التأثُّر بالظواهر والتقليعات الأدبية

لعصره . مهتماً بوجه خاص بالقضايا التى أثارَتْها الطليعة الأدبية (والتى لم يسايرها بدون شروط فى أى وقتٍ من الأوقات) .

كامپوس بالنسبة إلى رييس « تَاثرٌ كبير ... مع علم كبير بالإيقاع » « لأننى - يقول رييس - لا أرى فرقاً أساسياً بين الشعر والنثر » .

غير أنَّ كامپوس - كبقية الأنداد - لم يحظ بمقروئية واسعة فى حياته بالرغم من الفضيحة التى أثارها فى عددين من أعداد مجلَّة أورفى . وطوال العقد العشرين اكتفى بنشر بضع قصائد فى مجلات أدبية أبرزها « المعاصر » . وفى بدايات الثلاثينات لم يكن معترفاً به كشاعر كبير سوى من طرف دائرة محدودة جداً من مُثقفى مجلة « حضور » - غاسپار سيمويس ، كسايس مونتيرو ، غييرمو دى كاستيلو[1] ، وكذا من قبل بعض الجماعات الأدبية الصغيرة فى لشبونة وأبرطو ، فضلاً عن كاتبين وناقدين فرنسيين هما پيير أوركاد وأرماند غيبر[2] الذى سيشرع ، فيما بعد ، فى ترجمة أعماله إلى الفرنسية .

(1) Gaspar Simòes, Regio, Casais Monteiro, Guilhrmede Castilho .

(2) Pierre Hourcade, Armand Guilbert .

نشيد الظَّفر

على الضوء المؤلم لمصابيح المصنع الكهربائية الضخمة أكتب محموماً .

صَارّاً بأسنانى أكتب ، مغتاظاً مثل وحش أمام كل هذا الجمال ،

أمام كل هذا الجمال الذى لم يعرفه القدماء بتاتاً .

أوه ، أيتها العجلات ، التروس ، أيُّها الـ /-/-/-/ الخالد التشنج الفظُّ المحبوس للآليات المهيَّجة !

المهيّجة بداخلى وبخارجى ،

على امتداد أعصابى المحنّطة ،

وكحَلمات كل ذلك الذى أحسه

شفتاى تَيبَّستا ، لفرط سَمَاعك عن كثبٍ ،

أيها الضجيج الحداثى الهائل .

رأسى يتأجَّج اشتعالاً من أجل غنائكُنَّ

بِغُلُوٍّ تعبيرىٍّ بأحاسيسى المغالية كلها
بغلُوِّكنَّ المعاصر أيتها الماكينات .

محموماً ، أنظر إلى المحركات كمَا لَوْ إلى طبيعة استوائية – مدارات إنسانية هائلة من حديد ونار وقوة –
أغنى ، وأغنى الحاضر ، وكذلك الماضى والمستقبل ،
لأن الحاضر هو كل الماضى وهو كل المستقبل .
وهناك أفلاطون وفرجيل بداخل الماكينات والأضواء
الكهربائية فقط لأن الزمن القديم موجود هناك .
وفرجيل وأفلاطون كَانَا إنسانيَّيْنِ ، وثمة قِطعٌ
من الإسكندر المقدونى من القرن الخمسينى ربما ،
ذَرَّات قد تُصاب بالحُمَّى ذات يوم فى دماغ
أسخيلوس القرن المئة
تسرى عبر أحزمة الاتصال اللاسلكى هذه ، وعبر هذه الماكبس ، وعبر هذه المقاود
مزمجرةً ، صارّةً ، مُفَرِّيَةً ، مُخَرِّمة ، مدوِّية
مُحدِثةً فىَّ مداعبة مفرطة فى الجسد
بمداعبة مصنوعة فى الروح .

آه ، لو أستطيع التعبير تماماً كما يُعبِّر محُرِّك !

لو أكون مضبوطاً تماماً مثل آلة !

لو أستطيع المضيَّ ظَافراً عبر الحياة

كسيارة من آخر موديل !

لو أستطيع أَن أتشرَّبَ هذا كله فيزيقيا بالأقل ،

أن أتمزق كلية ، أن أنحل تماماً ، أن أصير مسَامًا

لكافَّة عطور الكاربورات والحرارات وفُحوم

هذه الزهرة الفخمة ، السوداء ، الصناعية والشرهة .

متآخياً مع الديناميات كلها !

اهتياج مختلط جرّاء صيرورتى الجزء الوكيل

من الدوران الحديدى والكونى

للقطارات الباسلة ،

لنقل البضائع فى السفن ،

لدوران الروافع البطئ والشَّبق ،

للضّجة المؤدَّبة للمصانع

وَلَمَا يَكَادُ يَكُونُ سكوناً هامساً ورتيباً لأحزمة

الاتصال اللاّسلكى .

ساعات أوربية منتجة مضغوطة

بين الماكينات والاندفاعات النافعة !

مُدُن كبرى راسية بحذاء المقاهى * ،

فى المقاهى – واحات اللامجدى الصاخب

حيث يَتبلّر ويَترسب

ضجيج النافع وإشاراته ،

والعجلات ، والعجلات المسنّنة ، وحَوَامل التقدم !

منيرفا جديدة لا روح لها من أرصفة ومحطات !

حماسات جديدة بحجم اللحظة !

رافدات من صفيح حديد بَاسم ترقد فى المرافئ ،

أو تُرفع ، فجأة ، على الأسطح المائلة للموانئ !

حركة دولية ، عابرة للمحيطات ، Canadian-pacific !

أنوار وَحُمى ضائعة من زمن فى الحانات ، والفنادق ،

فى الـ Long Champs وفى الـ Ascots وفى الـ Derbies ،

وتتوغل فىّ شَوَارعُ الأوبرا والپيكاديلّلى بمثابة روح فى الداخل ! `

* يقصد السفن الضخمة الراسية .

هى – لاالشـوارع ، هِى – لا السـاحـات ، هِى – لا –
هو الـجنون !

كل ما يَمُرُّ وَمَا يتوقَّف أمام الواجهات !

تـجـار ، مُشـرَّدون ، مـخنّثون ، مـتـأنِّقون بإفـراط فى
لباسـهم ،

أعضاء معروفون فى نَوادٍ أرستقراطية ،

هيآت ضـامـرة مريبة ، أَرْبابُ أُسـر سـعداء على نـحـو
مبهم ،

وأبويون حتى من خلال السلسلة الذهبية

التى تعبر صَدريتهم من جيب إلى جيب !

كل مايمرُّ ، كَلُّ مَا يَمرُّ ، وليس أبداً يمر !

حضور القوادات المبرِّز زيادة على اللزوم ؛

التفاهة المسلية (من يعلم ماذا يوجد فى الداخل ؟)

للبورجوازيتين الصغيرتين ، الأم وابنتها ،

وهما تسيران فى الشارع بدون هدف ثابت ؛

التـغنُّج الأنثـوى الزائف للواطيين الذين يمرّون ،
متثاقلين ؛

وكل أولئك البشر الأنيقين

الذين يتجولون مستعرضين ذواتهم

والذين يملكون روحاً فى الداخل !

(أوه ، لكم أرغب فى أن أكون قوّاداً لهذا كله !)
الجمال المدهش للفساد السياسى ، فضائح مالية ودبلوماسية لذيذة ،
عنف فى الشوارع .
ومن حين إلى آخر ألعوبة قتل الملك
غامرة السماوات الروتينية واللامعة
للحضارة اليومية بأنوار المعجزة والصَّلَف !

أخبارُ صحف مُفنَّدةٌ ،
مقالات سياسية صريحة فى عدم صراحتها ،
أخبار Possez-á- La Caisse ، جرائم كبرى
– فى عمودين ثم انتقل إلى الصفحة الثانية !–
الرائحة الطرية لمداد المطبعة !
لافتات أُلصقت للتوِّ ، مبلَّلةً ماتزال !
صفراء تظهر للعيان ، بحزام أبيض !
كم أحبكنَّ جميعاً ، جميعاً

كم أحبكنّ جميعاً بكل الوسائل

بالنظر والسمع والشم ،

وباللمس (وهو مايعنى لدىّ ، لمسَهُنّ مباشرة !) ،

وبالذكاء الشبيه بهوائى تَجْعَلْنَهُ يَهْتزُّ

أوه ، لَكَمْ تتهيّج حَوَاسى كُلُّها من أجلِكُنَّ !

سمادات ، دَرّاجات بخارية ، تقدُّم فى الفلاحة !

كيمياء زراعية ، والتجارة تكاد تصير علماً !

أوه فرسان الصناعة الجوّالين ،

التمديدات الإنسانية للمصانع والإدارات المتثاقلة !

أوه للثياب فى واجهات المتاجر ، أوه للمانيكيات !

لآخر صَرْعات الأزياء !

لمواد لانفع فيها يرغب فى شرائها الجميع !

مرحى ، بمخازن هائلة ذات شُعَب متعدّدة !

مرحى ، بإعلانات كهربائية تظهر طَارفة ثم تختفى !

مرحى بكل مايُصنع اليوم ، وبكل ماهو اليوم

نختلف عن الأمس !

إيه ، أيُّهـا الإسـمنت المسلح ، البـلاط ، الطرائق الجديدة !

التقدم المجيد فى أسلحة الدمار !

المدرَّعات ، الغوَّاصات ، المدافع ، المدافع الرشّاشة ، الطائرات !

أُحبُّكن كُلَّكن حُبَّ حيوانٍ مفترس .

أحبكن حُبَّ أكلة اللحوم ،

مضللاً ونظرى مشدودٌ إليكُنَّ

أوه أيتها الأشياء الكبيرة ، المبتذلة ، النافعة ، اللامجدية ،

يا أشياء جديدة بالكامل ،

يامعاصراتى الحميمات ، أيها الشكل الراهن والقريب لِنظام الكون المباشر .

يالها من ثورة إلهية جديدة من دينامية ومعدن !

أوه للمصانع ، المختبرات ، أوه لـ Musaic-Lallr ، أوه للـ Luna-Park

للمدرَّعات ، أوه للجسور ، أوه للسدود العائمة

– فى ذهنى المضطرب المتوهج أضاجعكنَّ
كمن يضاجع امرأة جميلة ،
أضاجعكن بالكامل ، مضاجعةَ امرأة جميلة من غير
حب ،
امرأة نلتقيها مصادفة فتبدو لنا شديدة الإثارة .
Eh - Lá - há واجهات المتاجر الكبرى !
Eh - Lá - há مصاعد كبريات العمارات !
Eh - Lá - há تغييرات حكومية !
برلمان ، سياسات ، مقرِّرو ميزانيات ،
ميزانيات مزوَّرة !
(ما من ميزانية إلاَّ وهى طبيعية تماماً مثل شجرة
ومامن برلمان إلاَّ وهو جميل كفراشة)

Eh - Lá الاهتمام بكل شىء فى الحياة ،
لأنَّ الحياة هى الكل ، من لمعان الواجهات
إلى الليل ، الجسر الخفىّ بين النجوم
والبحر القديم والمهيب الذى يغسل الشطآن
والذى هو نفسه ، ياللشَّفقة ، منذ كان أفلاطون
واقعياً هو أفلاطون

بحضوره الملموس حاملاً جسداً وروحاً فى داخله
وهو يُحادث أرسطو الذى ماكان ينبغى أن يكون تلميذه !

قادر أنا على أن أموت مطحوناً على يد محرِّك
شاعراً بالاستسلام اللذيذ لامْرَأة تُضَاجَعُ .
فلتقذفوا بى إلى الأفران العالية !
اطرحونى أسفل القطارات !
اجلدونى بحذاء السفن !
هى ذى المازوخية من خلال المَاكينَوِيَّة !
سَاديةُ الحداثىِّ المجهول ، سَادِيَّةُ الأنَا والضَّجيج !

Up - Lá - hó jockey Ganacdar de Derlaer
من ذا الذى يستطيع قضم ذى اللونين

(طويل القامة أريد أن أكون حَدَّ عدم استطاعتى اجتياز أىّ باب !
آه ، النظر عندى عبارة عن شذوذٍ جنسى !)

Eh-Lá eh - Lá, eh - Lá, أيتها الكاتير اثيات

دَعْنَنى أُهَشِّم رأسى على زوايا كُنَّ ، ثُمَّ فليتعذَّر

على الجميع التعرُّف عليَّ عِنْدما أُسحب من الشارع وأنا أنزف دماً !

أوه ، أيتها الترامويات ، القُطُر الجبلية ، المتروات ،

ادعكْنَنى جيِّداً حتى التشنَّج !

Hillai ! hilla !hilla - hô !

اضحكن مقهقهات مِلْءَ وجهى ،

أوه ، أيتها السيارات المكتظَّة بالدَّاعرين والقحاب ،

أيتها الحشود اليومية ، فى الشوارع ، لا هى بالفرحة ولا بالحزينة ،

أيها النهر المتعدِّد الألوان حيث بإمكانى الاستحمام كيف أشاء !

آه ، كم من حيوات معّقدة ، كم من أشياء ، هنالك فى منازل ذلك كله !

آه ، أن أعرف حياة الجميع ، الصّعوبات المالية ،

الدعاوى المنزلية ، الفوضى ، العوائد الداعرة التى
لايمكن حتى الارتياب فيها ،

الأفكار التى تراود أيّاً كان منفرداً فى غرفته ،

والحركات التى يأتيها حين لايستطيع أحدٌ رؤيته !

ألاَّ يُعرف شئ من هذا يعنى أن يُجهل بالكامل ،

أوه ، أيها السعار ، الذى ، كما لو كان حَمّى
واهتياجاً وسَغَباً

يستنفد وجْهى ويُرَجِّف تارة يدىَّ

بتشنجُّات لاَمَعقُولة وسط

غَوْغَاءِ هذه الشوارع المكتظَّة بالتَّدَافعات !

آه ، ثُمَّ أولئك العوامُّ القذرون الذين يظهرون

دائماً مِثْلَما هُمْ ، ويتلفظون

بالبِذَاءاتِ كألفاظ مألوفة ،

بينما أبناؤهم على أبواب المتاجر يتعلَّمون السرقة ،

وبناتهم فى سنِّ الثامنة - كل هذا جميل لدىَّ
ومحبوب !-

يَسْتَدْرجْن رجالاً ذوى مظهر محتشم

إلى الاستمناء فى فجوات سُلَّم العمارة !

أولئك الغوغاء الذين يجتازون السقالات

عائدين إلى بيوتهم عبر أزقةٍ تكاد تبدو غير حقيقية لضيقها ونتانَتها !

بشر عجيب مثل الكلاب يعيش ،

تحت حضيض كل النظم الأخلاقية ،

مِمَّا لم تُخلقْ من أجله أيُّ ديانة ،

ولا أيُّ فنّ ،

ولا أيُّ سياسة !

لَكَمْ أحبُّكُمْ كُلُّكم لأِنَّكُمْ هكذا ،

لا بدَعَرةٍ أَنْتُمْ على ضَعَتِكُمْ ،

ولا بأخيار ولا أشرار ،

مُحصَّنين في وَجْه كل أشكال التقدم ،

فوضى عجيبة فوضى عمق بحر الحياة !

(في نَاعُـــورة روض منزلي يطوف الحـــمـــار ، ويطوف ،

سِرُّ العَالَم يَعادِلُ هذا الفعل .

امْسَحِ العرق بِكُمِّكَ ، أيُّها الشغِّيل المُتَبرِّمُ ،

نور الشمس يخنق سكون الأفلاك

جميعاً علينا أن نموت ،

أوه ، غاباتِ الصنوبر المعتمة فى الغسق

حيث طفولتى شيئاً آخر كانت

غير مَنْ أنا الآن ...)

لكن ، آه مَرّة أخرى هذا الغيظ الميكانيكى الثابت !

مرة أخرى ، الوسواس المتسلِّط لحركة الأوتوبيسات .

ومرّةً أخرى هِيَاج الانْوجَاد سائراً فى آن واحد ،

فى قطارات الجهات كلها فى العالم كله ،

الانوجاد ملوِّحاً بالوداع على جانب السفن كافة .

وهى اللحظة ، بصَدَد رفع المرساة أو مغادرة الأرصفة .

أوه للحديد ، للفولاذ ، الألومنيوم ، صفائح المعدن المَلْوِىّ !

أوه للأرصفة ، الموانئ ، القُطُر ، الرافعات ، الجَّرارات !

Eh - Lá كوارث سككية كبرى !

Eh - Lá كوارث انهيارات فى ممرات المناجم !

Eh - Lá حوادث غرق سفن المحيطات الممتعةُ !

Eh - Lá ثورات هنا ، هناك وهنالك !

تغـيـرات فى الدسـاتيـر ، حـروب ، مـعـاهدات ، اجتياحات ،

ضوضاء . مظالم ، اعتداءات ، وربما بعد قليل تأتى النهاية ،

اجتياح البرابرة الصفر لأوروبا ،

وشمس أخرى فى الأفق الجديد !

لَكِنْ

فيم يهم هذا كله ؟ فيم يفيد هذا كُلُّه

بريقَ الصَّخب المعاصر المحمرَّ السَّاطعَ ، بريقَ حضارة اليوم ؟

هذا كُله يمحو الكُلَّ ماعدا هذه اللَّحظة ،

لحظة الجذع العارى والساخن مثل وَقَّاد بخارى ،

اللحظة الصّارَّة ، الصاخبة ، الميكانيكية ،

اللحظة الديناميكية التى هى مُرورُ كل سِكّيراتِ

الحديد والبرونز وسُكْرِ المعادن كافَّة .

Ea ، القطارات ، Ea ، الجسور ، Ea ، الفنادق ساعةَ الأُكل

Ea ، أجـهزة مِنْ أنواع شـتى ، حـديدية ، خـشـنة ، صـغيرة ،

آلات ضـابطة ، طواحين ، حَفَّارات ،

مكابس ، خَرَّاطات ، مطابع رحويّة .

Ea ! Ea ! Ea !

Eaكهرباء ، عَصَبٌ مَريضٌ بالمادة !

Ea تلغرافيا لاسلكية ، لطاقة اللاشعوري المعدنية !

Ea انفاق ، قنوات ، پنما ، كييل ، سويث !

Ea الماضى كله فى قلب الحاضر !

Ea المستقبل كله داخل أنفسنا ، Ea

Ea ! Ea ! Ea

ثمار حَديدٍ ومنافع الشـجرة – المصنع الكونى !

Ea ! Ea ! Ea ! Ea - hâ - hâ - ô !

لاَ وجود لى حتى من الداخل . أَلُفُّ ، أتدحرجُ وأَغْدُو آلَةً .

أُشَدُّ إلى جميع القطارات ،

أُرْفَع فَوق كافة الأرصفة ،

أَدُور فى مراوح جميع السفن

Ea ! Ea ! hâ ! Eâ !

Ea أنا الحرارة المعدنية وأنا الكهرباء !

Ea ، وقـضـبـان السـكة أنا وغـرف الآلات ، وأوروبا بأسرها !

Ea برافو من أجلي ومن أجل الكل ، من أجل !

الماكينات المشتغلة ، ea

أن أثِب مع الكل فوق الكل ! Hup - Lá

Hup - Lá , hup - Lá , hup - Lá, hup Lá !

há - Lá; há - há ! Nô - ô - ô - ô !

z - z- z - z - z - z - z - z - z !

آه ألا أكون الناس جميعاً ولا الجهات كُلَّها

لنـدن .

مقطعات من الأناشيد

(تتمة نشيدين ...)

I

....

تعال ، أيها الليل الموغل فى القدم

أيها الملك المولود مخلوعاً عن العرش ،

أيها الليل المساوى للسكينة من الداخل ، ليل

النجوم الخرزية القصيرة

فوق حواشى ثياب اللانهائى .

غامضاً تعال ،

خفيفاً ،

تعال وحيداً ومهيباً ، بين يدين مسُبلتين

على الجانبين ، تعال

وأحمل معك الجبال البعيدة عند أقدام الأشجار القريبة ،

ذوِّب في حقلك أنت كُلَّ ما أشاهد من حقول ،

اجعل من الجبل كتلة وحيدة لجسدك ،

أُمْحُ كُلَّ الفوارق التى أتأمَّلها من بعيد ،

كُلَّ الشِّعاب المُصَعِّدةِ إليها ،

كُلَّ الأشجار المتنوعة التى تجعلها من بعيد تبدو خضراء مُعتمة ،

كافَّة الدُّور المتصاعد دُخَانُها بين الأشجار ،

وَلْتُبقِ على نور واحد فقط ثُمَّ على نور آخر ونور آخر

مايزال فى المسافة المبْهَمة المعكَّرة ،

المسافة التى فجأةً يتعذَّر عليَّ عُبورها .

ياسَيِّدةَ * الأشياء المستحيلة

التى سُدىً نبحث عنها ،

★ اضطررتُ ، إبرازاً لإيحاءات الخطاب الأمومية والدينية ، تحويل صيغة الليل المذكرة فى العربية إلى صيغة المؤنث ، فى بعض السياقات ، للتلاؤم مع التأنيث الأصلى فى لفظة ليل الإسبانية البرتغالية .

والأحلام التى تأتينا مع نُزول المساء عبر النافذة ،

والأهداف التى تداعبنا

فى كُبريات سطيحات أحد فنادق الكون ،

على إيقاع الموسيقى الأوربية والأصوات القريبة والنائية

التى تؤلمنا لمعرفتنا جيِّداً بأنها لن تكون واقعية أبداً ...

تعالى وهَدَهدينا

تعالى وداعبينا ،

قبِّلينا وبصمت فى الجبهة

بخفة قبِّلينا فى الجبهة حيث لم نَذُق التقبيل

اللهم إلاَّ من تزييف معين للروح

ومن نشيج غامض نابع بعذوبة

مِنْ أقدم مافِينا ،

هنالك حيث جِذْرُ كل تلك الأشجار العجيبة

التى ثمارها هى الأحلام التى نداعبها ونحبها

خارج أية علاقة مع كل مافى الحياة .

تعال أيها الليل أنت

السيدة الفائقة الجلال

السيدة المهيبة والكاملة

من إرادة نشيج خفيّة رُبّما

لأنّ الروح أكبر والحياة أضأل

وليس الجسد مَصْدَرَ حركاتنا

وما ندركه لايتجاوز مبلغ ذراعنا

مانراه لايتخطى ماتدركه أبصارنا .

تعالي ، أيتها الأم المتألمة

الأمُّ العذراء حاملة هواجس الله ،

يابرج الحزانى المهانين العاجىّ ،

أيتها اليد الباردة على جبهة الوضيع المحمومة ،

يامذاق الماء على شفة المهدود اليابسة ،

تعال من عمق

الأفق الغامق ،

تعال واقتلعنى

من حَضِيضِ اللاجدوى والقلق هذا حيث اخضرارى .

اسْحَبنى من حَضِيضى مثل أقحوانة منسيّة ،

ثم ورقة إثر ورقة اقرأ

أىَّ مَصِير ينتظرنى ،

ولتضعنى بجانبك منزوع الأوراق

بجانب رضاك المفعم سكوناً وبرودة .

وَلْتَرْم بورقة من أرواقى إلى الشمال ،

حيث مُدُن اليوم التى طالما عشقتُها فيك ،

وَارْم أخرى نحو الجنوب ،

حيث البحار المفتوحة للملاحين

ثُمَّ أطلق واحدة أخرى باتجاه الغرب

حيث يتهيّأ فى عنفوانه ذلك المستقبل

الذى أَعْبُده على جهلى به ،

ولتقذف إلى الشرق بالورقة الأخرى ،

ببقية الورقات ، وبما تبقّى منّى إلى الشرق

الذى منه يأتى كُلُّ شئ ، نَهاراً كَانْ أم إيماناً ،

الشرقُ الأبَّهِىُّ ، المتعصِّب ، الساخن ،

الشرقُ المغالى الذى لن أراه أبداً ،

الشرق البراهمانى ، البوذى ، السانتستى ،

شرقُ كُلِّ ماليس لنا ،

شرق كل ذلك الذى لسنا إيّاه ،

وحيث – المسيح – من يدرى ؟ – حيًا مايزال ربما ،

وحيث اللـه موجود ربما بالفعل ويهيـمن على كلِّ
شئ ...

تعال عبر البحار ،

عبر البحار العليا ،

عبر البحار غير المحدَّدة الآفاق ؛

تعال وَمرِّر على ظهر التِّنين يدك

وخُفيةً هَدِّئْهُ ،

أيُّها المروِّضُ المنوِّمُ كُلَّ متهيِّج شديد .

تعال أيُّها الحَاجِبُ

أيُّها الأمومى ،

خطوة خطوة أيتها المرضة الموغلة فى القدم

يامـن كـنـتِ جـالـسـةً جـنـب وسـادة آلـهـة
العقائد الغابرة ،

وشاهدت ولادة جيوبا وجوبيتر

باسمةً ، لأنَّ كل شئ زائف لديك وقبض ريح .

تعال أيُّها الليل الساكن المنخطف

كى تُحِيل قلبى معطفاً أبيض ،

فى الليل .

صافياً كنسيم عشية خفيفة

هادئاً مثل مداعبة أمومية ،

بنجوم لاَ مِعة فى يديك

وبقناع قمر سرِّىّ يسرى على وجهك

كل الأصوات بطريقة أخرى تَرِنُّ

عندما تَحُلُّ أنت .

والكل يخفض الصوت عندما تجئ

ولا أحد يَرَاك داخلاً .

لا أحد يعلم بأنك حَلَلْتَ .

والأشياء كلها تفقد الأضواء والألوان

وفى السماء الشاهقة التى زرقاء ماتزال ،

صافيةٌ كانت ، دائرة بيضاء أم محض نور يصلنا ،

يبدأ

القمرُ فى التكوُّن فعليا .

II

آه للشفق ، لهبوط الليل ، لإشعال الأضواء فى المدن الكبرى

وَليَدِ السرِّ تخنُق الضجيج ،

وذلك الإجهاد الشامل الذى يُفسد فينا

إحساسَنا الدقيق والنشيط بالحياة .

وكل شارع قَنَاةٌ من قنوات البندقية مدينة الضجر .

وكم هو غامض ذلك العمق الذى يوحِّد الشوارع ،

لدى نزول الليل ،

أوه ياثيساريو بيردى * ، أوه أيها المعلّم ،

أوه يا إحساس الرجل الغربى ** !

ياله من قلق عميق ، يالها من رغبة فى أشياء أخرى

غير البلدان وغير الأزمنة أو الحيوان ،

يالها من رغبة أحياناً فى أنماط مغايرة لأوضاع الروح

* شاعر برتغالى عاش فى النصف الثانى من القرن 19 .

** « إحساس رجل من الغرب » : عنوان قصيدة لنفس الشاعر تعكس الروح البرتغالية بكل ثقلها التاريخى إزاء حداثة الغرب .

ألاَ فلتُبَلِّل من الداخل أيُّها الليل هذه اللحظة
البطيئة والسحيقة !

الرعبُ المُسَرْنَمُ بين الأضواء المشعلة ،
الرعبُ السائل الرخو المستَند إلى الزاويا
كمتسوِّلٍ أحاسيسَ مستحيلة
لا يَعرفُ حتى من يستطيع منحَهُ إياها ...

عندما سأموت أنا ،
عندما سأمضى بحقارة مثل الجميع ،
عَبْرَ ذلك الطريق الذى لايمكن أن نواجه فكرتنا عنه مباشرة ،
عبر ذلك الباب الذى لا أحد يطل منه حتى
لو تيسَّر الإطلال ،
عبر ذلك الميناء الذى رُبَّان السفينة يجهله ،
ليكن ذلك الآن فى هذه الساعة الجديرة بما لدىَّ
من أنواع الضجر
فى هذه الساعة الصوفية الروحية القديمة

فى هذه الساعة ربما قبل زمن أبعد مما يبدو
فى الأحلام رأى أفلاطون فكرة الله
ناحتاً جسداً ووجوداً متلائمين بصفاء تام
داخل فِكْرِهِ المُجلَّى مثل حقل .

لتكن هذه الساعةُ مناسبةَ حملى إلى الدفن ،
هذه الساعة التى لا أعرف كيف أعيش فيها
ولا أية مشاعر ينبغى أن تكون لدى أو حتى أنْ أتظاهر بأنَّها لدىَّ ،
فى هذه الساعة التى رأفتها معذِّبة ومفرطة ،
وظلالها قادمة من أشياء ليست من الأشياء فى شئ ،
وَمُرُورها لا يحاذى بثيابه أرضية الحياة الحسَّاسة
ولا يخلِّف أىَّ عطر فى مسالك النظر .

ضع على الركبة يديك بهيأة صليب ، أوه أيُّها الرفيق
الذى ليس لى حتى إمكانية امتلاكه ،

ضع على الركبة يديك وحدِّق فىَّ صامتاً

فى هذه الساعة ، حيث لا أستطيع أن أرى أنَّك
تراني ،

انظر إلىَّ فى سكون ، ولتسألنى خفية ،

– أنت الذى تعرفنى – مَنْ أكون

على مقود الشيفروليت

عبر طريق سينترا

على ضـوء القَـمـر وضـوء الحلم عـبـر الطريق الصـحراوى ،

وحيداً أسوق ، ببُطء تقريباً أسوق ، وشيئاً فشيئاً

يبدو لى ، أو أنَّنى أحاول كى يبدو لى ، بأننى

أسير عبر طريق آخر ، عبر حلم آخر ،

عبر عالم آخر ،

وبأننى أتابع السير بدون أن أخلّف لشبونة ورائى ،

وبدون أن يكون علىَّ الوصـول إلى سـينترا التى أمامى ،

وعلىَّ أن أتابع .

وماذا أفعل بالذات سوى أن أتابع المسير

بألاَّ أتوقَّف وأن أتابع وأتابع ؟

سوف أمضى الليلة فى سينترا

لأننى لا أستطيع تمضيتها فى لشبونة

لكن بمجرد وصولى إلى سينترا

سوف أشعر بالحزن لأننى لم أمكث فى لشبونة .

دائماً هذا القلق الذى بلاغاية ، ولانتيجة

هذا القلق المتقطع ، دائماً ، دائماً ، دائماً .

قنطُ الروح هذا المُجَاوزُ كُلَّ حدّ ، من أجل لاشئ ،

فى طريق سينترا ، فى طريق الحلم أو فى طريق الحياة ...

مُنقاداً للحركات اللاشعورية التى بها أُدير المقود ،

من تحتى ومعى تقفز تلك السيارة التى أعارُونى إياها .

أَثْنَاء لَفِّى نحو اليمين أبتسم للعلامة وأنا أفكّر فى عَدَدِ

الأشياء المُعارة التى بها أمضى مطوِّفًا عبر العالم !

كَمْ من أشياء مُعارة أسوقها كما لو كانت ملكى الخاص !

ياوَيحى ، ما أَعَارُونيه ، ليس سوى أنَاي بالذات .

علـى اليـســـار يـوجـد كـوخ ، أجـل ، كـوخ عـلـى حافَّة الطريق .

وعلى اليمين الحقل المنشور ، والقمر مطلا من بعيد .

السيارة التى بَدَا منذ قليل أنها تمنحنى الحرية

هى ما أنا الآن فيه محبوس ،

ولست بقادر على سياقتها إلا هكذا .

لا أقدر على التحكُّم فيها إِلاَّ إذا كنتُ

أحتويها وكانت تحتوينى .

إلى الخلف ، على اليـســـار الآن ، يـوجـد الكوخ الوضيع ،

الكوخ الأحطُّ من وضيع ،

هنالك ينبغى أن تكون الحياة سعيدة :

فقط لأنَّها ليست حياتى .

لو رآنى أَحَدٌ من النافذة لقال :

سعيد هو ذلك الرجل .

بالنسبة إلى الطفل الذى ينظر

من خلف زجاج النافذة العلوية (بالسيارة التى

أُعِرْتُها) رُبمَّا بَدَوْتُ شبيهاً بحُلم ، شبيهاً بجنيّة واقعية .

بالنسبة إلى الفتاة التى أطلّت ،

عند سماعها صوت المحرك ، من نافذة المطبخ ،

من الطابق الأرضى ، رُبَّما كنتُ مثل ذلك الأمير

الذى يحتلُّ كُلَّ قلب الفتاة التى ظلت خفيةً من خَلَل

الأحمر الملصق بالزجاج ، تُتَابِعنى حتى المنعرج

الذى اختفيت فيه .

أأَحْلاماً أُخلِّف من ورائى ؟ أم هى السيارة

التى تخلِّف من ورائها الأحلام ؟

أأنا سائق السيارة ؟ أم أنا السيارة المعارة التى أسوق ؟

فى طريق سينترا ، على ضوء البدر الناصع ،

مغموراً بالحزن أمام الليل والحقول ،

وأنا أسوق الشيفروليت المعارة ،

فى طريق المستقبل أضيع ، أغرق فيما

أُدْركه من مسافة ،

وبرغبة رهيبة ، فجائية ، عنيفة ، لا معقولة

أضاعف سرعتى

لكنَّ قلبى ظلَّ هناك ، فى كومة الأحجار

التى انحرفت عنها ناظراً إليها بدون أن أراها ،

منبوذاً جنب الكوخ

قلبى الفارغ

قلبى التعيس

قلبى الأكثر إنسانية منى ، والأكثر كمالاً من الحياة .

على طريق سينترا ، فى حافة منتصف الليل ،

على ضوء البدر ، على المقود

على طريق سينترا ، ياالَتَعَبِ المخيِّلة

على طريق سينترا ، أكثر فأكثر دُنواً من سينترا

على طريق سينترا ، أقلَّ فأقلَّ دُنواً من نفسى .

رسم تخطيطى

مثل كوب فارغ تحطَّمت روحى

هاويةً من أعلى السُّلَّم حتى الحضيض .

من يَدَىْ خادم لامبالية هَوَتْ ،

متناثرة إلى شظايا أكثر بكثير

مما يحويه الكوب ذاته من شظايا .

أَوَ غير معقول هذا ؟ أمستحيل ؟ ذلك ما حدث بالفعل .

أمتلك من الأحاسيس مايفوق

جميع تلك التى امتلكتها عندما أحسستُ

بأننى هو أنا .

كومة أشياء أنا مُشتَّتة فوق بِسَاط سيُنَفَّض

سقوطي أحدث ضجّة كُوب يتحطَّم .

الآلهة المتكئون على درابزين السُّلَّم
ظَلُّوا ينظرون بثبات إلى الحطام
الذى حوَّلتنى خَادِمُهم إليه .
خادمهم التى لم تُثِر البتة غضبهم
فهم متسامحون .

كوب فارغ إذن ، أليس هو ماكنتُه ؟
إنهم ينظرون إلى الحطام واعين ، على نحو عبثى ،
بأنفسهم ذاتها ، لا بكونهم واعين .

ينظرون ويبسمون
يبسمون ، متسامحين تجاه الخادم
التى لم تفعل ذلك عن عمد .
السُّلَّم الأعظم المفروش بالنجوم يتمدَّد ،
ثمت حطام يلمع ، ممسوساً باللمعان الخارجى
وسط النجوم
حطام تُحَملِقُ فيه الآلهة بتأنٍ
لا تدرى ماذا يفعل هناك .

أحشـاء على طريقة أوپرطو

ذات يوم ، فى مطعم ، خارج المكان والزمان ،
قدَّموا لى الحُبَّ وجبةً مِن أحشاء باردة .
قلت بكثير من الرّقة لرئيس الطباخين
إننى أفضل الأحشاء ساخنة ،
لأنَّها (وكانت على الطريقة البرتغالية)
لاتؤكل أبداً باردة .

نَفِد صبرهم معى ،
لايمكن أن تكون على حق أبداً
حتى فى مطعم .
ولم أخجل ، لم أطلب شيئاً آخر
أَدَّيْتُ الثمن ، ومضيتُ أتجول فى الشارع

من يدرى مامعنى هذا كله ؟

لقد حدث لى أنا الذى لست أدرى ...

أعرف جيّداً أن الناس جميعاً كانت لديهم ،

فى الطفولة ، حديقة خاصة أو عمومية أو لأحد الجيران .

أعرف جيداً أنَّ اللَّعب كان شأننا الأوحد

وأن الحزن وليدُ اليوم ،

هذا ما أعرفُه زيادة على اللزوم ،

لكنى ، إذا كنتُ قد طلبتُ حُبّاً ، فلماذا

أتونى بأحشاء باردة ، على طريقة أوپرطو ؟

مَاهى بِصْحن يمكن أكْلُهُ بارداً ،

بَارداً أتونى به

لَمْ أتَشكّ ، غير أنه بَارداً كان

لايمكن أكله بارداً لكنه بَارد

أتاني بارداً .

Lisbon Revisted

لا شئ يشدنى إلى شئ .

خمسين شيئاً أريد فى وقت واحد .

لدي اشتياق مصحوب بقلق من يعانى

من جوع فى اللحم لا أعرف ماهو .

قَلِقاً أنام ، وأحيا الحلم القَلِق

لِمَنْ على قلق ينام متقاسما أحلامه .

كل الأبواب المجرّدة والضرورية أُغلقت فى وجهى

أُسدلت الستائر فى وجه كافّة الفرضيات

التى كان باستطاعتى مشاهدتها فى الشارع .

فى الزقاق حيث كنتُ لايوجد البتّة

رقم المنزل الذى أعطونيه .

الحياة التى نُوِّمتُ فيها استيقظت فى نفسى
حتى جيوشى الحُلمية تكبَّدت الهزيمة
حتى أحلامى أحسَّت ببطلانها
حين كنت أحلم بها .
حتى الحياة ، حتى الحياة لمجرد أنها مشتهاة
تشعرنى بالامتلاء ،
حتى تلك الحياة .
وَاعٍ بكل المسافات اللاَّمتصلة .
ومن أجل لحظات الإجهاد أواصل الكاتبة .
ضَجَرُ الضجرِ نفسه هو ما يقذف إلى الشاطئ بِى .
لا أدرى أىَّ هدف وأىَّ مستقبل
ينتظر قلقى الذى لا دفَّة له .

لا أعرف أيّ جزر من الجنوب المستحيل
تترَقَّب غَرَقى ،
ولا أيَّة صفحة أدبٍ ستهبنى
بيتاً من الشعر بالأقل .
لا أعرف هذا ، ولا ذاك ، ولا أىَّ شئ على الإطلاق

وفى قرارة روحى ، حيث أَحْلُم بما اسْتُهلِك من أحلام

فى الحقول الأخيرة للنفس ، حيث أسترجع الذكريات بلا مبرِّر ،

وحيث الماضى ضبابة طبيعية من دموع مصطنعة ،

فيِ طرقات الغابات البعيدة .

حيث كينونتى المفترضة ، هنالك ،

تفرُّ محطَّمةً ، البقايا الأخيرة للوهم النهائى ،

جيوشى المحلومة المهزومة بدون هزيمة ،

كتائبى لأنَّها ممزَّقة فى ذات الله .

مَرَّةً أخرى أعود إلى رؤيتك

يامدينة طُفُولتى الضائعة بطريقة رهيبة .

أيتها المدينة الحزينة والفرحة

مرة أخرى أحلم ، هنا أحلم

أنا ؟ لكن ، أأنا نفسى الذى هنا عِشت

وإلى هنا عَدْتُ ، وَعُدت

كى أعود وأعود وأعود وإلى

هنا أعود من جديد كى أعود ؟

أَمْ أنَّ كل الأنوات * التى عشتُها أو عاشَتْ
هنا كُلُّنا كُنَّا سلسلةَ خَرَزات – كائنات
منظومة فى خيط – ذاكرة ،
سلسلة أحلام فى داخلى
من أجل شخص موجود خارج ذاتى ؟

مرة أخرى أعود كى أراك ،
بقلب أَنْأَى مما كان ، وبرُوح أقلَّ انتماءً إلىَّ
مَرّة أخرى أعود كى أراك
– كى أرى لشبونة والتاج وكل شئ –
إنَّه مُرُور غير مُجْدٍ منكِ ومِنّى ،
أجنبىٌّ هنا كَما فى الجهات كلها ،
طارئ فى الحياة كما فى الروح ،
شَبَح ضَالٌّ فى صالونات الذكريات
بضوضاء الجرذان والأخشاب الصارّة
فى قلعة العيش الملعونة ...

* جمع : أنا .

مرّة أخرى أعود كى أراك

ظلاً يَمْرَق عبر الظلال ، يسطع

لهُنيَهةٍ على ضوء جنائزى مجهول

ثُمَّ يُوغل فى الليل

مثلنا يضيع مُخور المركب فى الماء ...

مرة أخرى أعود كى أراك

لكن ، آه ، لن أعُوَد إلى رؤية ذاتى ،

لقد تكسَّرت المرآة السحرية التى

اعتدتُ العودةَ إلى رؤية ذاتى فيها .

فى كل شظية متناثرة مشؤومة

لا أرى سوى فلذةٍ منى –

فلذَةٍ منِك ومَنّى .

1926

فى ساحات المستقبل

أية إكسيرات سَيَقَعُ الإشهار لها

فى ساحات المستقبل – نفس ساحاتنا ربما – ؟

بإتيكيتات مغايرة ، نفس إتيكيتات مصر الفرعونية ؛

بِأساليب أخرى تَحُثُّ على شراء

نفس مَالَدْيَنا الآن .

ثُمَ الميتافيزيقات الضائعة فى زوايا

مقاهى الأمكنة كلها ،

والفلسفات المتوحّدة ،

من فرط الإقامة فى غرف أَسْطُح الإخفاق ،

وأفكار فَرْط مصادفة العَرضى المتواتر

وحدوس السيد لا أحد المتكاثر ،

كُلُّها قد تشكّل ، ذات يوم ، بِعْصارة مَجرّدة

وَبمادّة غير مستساغة ، إلهاً ثُمَّ تستولى
على العالم، لكنْ لا سلام
من أجلى اليوم ، أثناء التفكير فى خواصّ الأشياء
في المصائر التى لَمْ أَقُضَّ مضجعها بعدُ ،
في ميتافيزيقايَ الخاصة . ميتافيزيقايَ
طَالمَا أفكرّها وأُحِسُّها .
لا سلام .
على الجبال الشامخة نصب الشمس
ثمت الكثير من السّكون الصافى
أَوَ ثَمّتَ سكون بالفعل ؟
فى الجبال الواقعة نصب الشمس
لا وجود لَمَا يُشبه الروح ،
ما كنت لتكون جبالاً ، نصب الشمس
لو امتلكت روحاً .
هُو ذَا أتعب الفكر الذى يمضى حتى قرارة الوجود ،
قد غمرنى بالشيخوخة منذ ما قَبْلَ الأمس
مع بُرودة تملؤ الجسد .

ماذا عن الأهداف الضائعة والأحلام المستحيلة ؟

ولماذا تحتمً وُجود أهداف ميّتة

وأحلام لا عقل لها ؟

أيام المطر البطئ ، الرتيب ، المتَّصل

تحملنى على النهوض من المقعد الذى

عليه جلست بغير انتباه ، بينما

الكون فراغ مطلق حوالىَّ

والسأم الذى يُقَوِّم عظامنا

يُبَلِّل كينونتى .

ثمت ذاكرة شئ لا أتذكَّره

تُبرِّد روحى .

لاشك أن هناك احتمالات حُلُم عديدة

لِجزُر بحار الجنوب

ورمال الصحارى تعوِّض الخيال بشكل مّا ؛

لكننى فى قلبى بالذات يَقَعُ إحساسى

قلبى بالذات بلا بحار ولا جُزر ولا صحارى

وفى روحى الخاويةُ أوجَد .

ومع ذلك ، وكما لو كنت مجنوناً ، مُسْهِباً ،

أواصل السرد بلامعنى .

ثورانُ القدر الباردُ ،

تقاطعُ كل شئ ،

اختلاطُ الأشياء ،وأسبابها ونتائجها

عاقبةُ امتلاك جسد وروح ،

وصوت المطر ينحل فى ذاتى ، يصير أناى ،

وهو شديد القتامة .

فبراير 1923

تـأجيــل

بعد غَدٍ ، نعم ؛ لكن فقط بعد غد .

غَداً سـأصْرِفه مفكِّراً فى بعد غد

وبذلك يصبح الأمر ممكناً ؛ أما اليوم فلا ..

لا .. اليوم لاشئ ؛ اليوم لا أستطيع .

هناك الإلحاح الغامض لِدَخيلتى المرئية ،

حلم حياتى الواقعية ،

التعب المُسبق واللانهائى ،

تَعَب عوالم الصعود فى ترام ..

هذا الطراز من الروح ..

فقط بعد غد

أما اليوم فأريد التهيُّؤ .

المخطط جاهز لدي ؛ ذلك أفضل

اليوم لن أرسم مخططات .

غداً سيكون يوم التخطيطات .

غداً سأجلس أمام طاولة العمل من أجل أن أفتح العالم ،

لكن سأفتح العالم فقط بعد غد .

لديَّ رغبة فى البكاء فجأة ، من الداخل ...

لا .. لا ترغبوا فى معرفةٍ أكثر ، لأن الأمر

سريّ ولن أبوح به .

فقط بعد غد ..

عندما كنت طفلا كان سِيرْك الأحد

يسلِّينى أسبوعاً بكامله ،

اليوم يسلِّينى فقط سيرك أحد كُلِّ أسبوع طفولتى .

بعد غد سأكون آخر

ظافرة ستصير حياتى ،

كل مزاياى الواقعية ، مزايا الذكى ، المثقَّف العملى

سوف تُسْتَحضر بقرار رفيع .

لكن بِقَرار من الغد .

اليوم أريد النوم . غَداً سوف أكتب ..

واليوم ؟ ماهى الفُرجة القادرة على

أن تُعيد إلىَّ طفولتى ؟

بالرغم مِنْ أنَّنى مُجْبَرٌ على اقتناء تذاكر الغد

لِمَا بعد غد حيث ستكون الفُرجة ممتعة .

قبل ذلك لا ..

بعد غد سيكون لدىَّ العرض العمومى

الذى سأبحثه غداً .

بعد غد سأكون فى النهاية

ذلك الذى لست قادراً على أن أكونه بأىٍّ شكل .

فقط بعد ...

أشعر بالرغبة فى النوم

بارداًبرودةَ كَلْب سائب ،

لدىَّ رغبة فى كثير من النوم

غداً سأبوح لك بالسر ، أو بعد غد ،

نعم ، ربما فقط بعد غد

المستقبل ..

نعم ، المستقبل .

14 أبريل 1948

غيــوم

أَوَثمّة فى النهار الكئيب ،

حيث قلبى الأشدُّ كآبة من النهار

واجبات أخلاقية ومدنية ؟

تعقيدات مُتَرتِّبة عن الواجبات ،

والعواقب ؟

كَلاً .. لاشئ

النهار كئيب ، الرغبات فى كل شئ ضعيفة

لاشئ .

بعضهم يسافر (أنا أيضاً سافرت) ،

آخرون تحت الشمس يقبعون (كذلك تحت الشمس كنتُ أو ظَنَنْتنى كذلك)

جميعهم يملكون الصواب ، أو الحياة

أو الجهل المقَنَّن ،

الغرور ، الفرح وحسن المعاشرة ،
ويُهاجرون كي يعودوا ، أو كي لايعودوا
في سُفن تتكلَّف تلقائياً بنقلهم ،
غير شاعرين بما يكمن من موت
في كُلِّ إقلاع ،
وبما يكمن من أسرار في كل وصول ،
وَبما ثَمَّتَ من رهبة في كل جديد ...
إنهم لايحسُّون ؛ لذلك هُمْ مَا هَمْ عليه ،
نواب ورجال مال ، مستخدمون تجاريون
يذهبون إلى كافَّة المسارح ويعرفون الناس جميعاً .
يفتقرون إلى الإحساس :
من أجل ماذا يتحتم عليهم الإحساس ؟
قطيع مَكْسُوٌّ من حظيرة الآلهة ،
دَعْهُ يمرُّ ، مُكلّلاً بالغار ... قرباناً تحت الشمس
باسماً ، حيّاً . مسروراً بكونه يُحَسُّ .
دَعْهُ يمرُّ ، لكن ، آه ، أنا مَعَه مَاضٍ
بدون إكليل غار
نحو نفس المصير !

معه أمضى بغير الشمس التى أحس بها ،

بغير الحياة التى لدىّ ،

معه أمضى دون أن أجهل ...

فى النهار الحزين ، بقلبى الأشد حزناً من النهار

فى النهار الكئيب ، الكئيب كُكل النهارات

فى النهار الأشد كآبة

13 مايو 1928

تكتُّمات

أريد أن أرتب حياتى ، أن أضع رفوفاً للإدارة والفعل ،

أريد ذلك الآن ، كما أردت دائماً ، بالنتيجة إياها ،

إذن ، ما أفضل امتلاك هذا الهدف الواضح ،

واثق الإرادة من فعل شئ ما ، فى تمام الوضوح !

سَأَلمُّ حقائبى من أجل اللانهائى ،

سأرتب ألبارودى دى كامپوس جيِّداً .

وأواصل كينونتى غداً تماماً كما قبل أمس

– ماقبل أمس الذى هو كل الأيام ...

أبتسم لمعرفتى المسبقة باللاشئ الذى سأكونه .

أبتسم على الأقل ؛ فالابتسام هو دائماً شئ ما .

هكذا يُصنَع الأدب ...

أيُّها الإله المقدَّس ، هكذا تصنع حتى الحياة ذاتها .

الآخرون هم روما نطيقيون أيضاً ،

الآخرون أيضاً لاينجزون شيئاً ، أغنياء أم فقراء

الآخرون أيضاً .. يُمضون الحياة فى تأمُّل الحقائب

التى عليهم أن يَلمُّوها .

الآخرون أيضاً ينامون بجانب أوراق نصف مكتوبة ،

الآخرون هم أيضاً أنا .

أيتها البائعة المتجوِّلة ، يامن تنادين

على بضاعَتِك بغناء شبيه بنشيد لاشعورى ،

أيتها العُجَيْلةُ المُسَنَّنَةُ لساعة الاقتصاد السياسي ،

أيتها الأم الراهنة والمستقبلية

للميِّتين سَلْخاً فى المستعمرات ،

صوتك يَصِلُني مِثْلَ نِدَاءٍ مُوَجَّه إلى اللامكان ،

مثل سكون الحياة ...

أَنْقُلُ النَّظر من الأوراق التى أنوى ترتيبها

إلى النافذة التى لَمْ أَرَ من خلالها البائعة

التى من أجلها أَصَخْتُ السمع ،

بينما ابتسامتى التى مازالت مُرْتسمةً

تتضَمَّن نَقْداً ميتافيزقياً ...

أمام طاولة شغل مُرتَّبة

تخلَّيتُ عن الإيمان بجميع الآلهة ،

أبصرتُ وجهاً لوجه كافَّة المصائر

وأنا أتَسَلَّى بالإِصْغَاء إلى مُنَادٍ يَمُرُّ

وتَعَبى قارب عتيق يتعفَّن

فى الشاطئ القاحل .

وبهذه الصورة ، صورة أىِّ شاعر آخر

أغادر الطاولة والقصيدة ... مثل إله ،

لم أُرتِّب لاهَذَا الشئ ولا ذاك .

15 مايو 1929

شاسعة هى الصحارى

شاسعة هى الصحارى ، صحراء هو كل شئ
لابسبَب أطنان من الأحجار واللبنات العالية
يظَلُّ الحضيض مقنَّعاً ، مثل هذا
الحضيض الذى هو كل شئ .

هائلة هى الصحارى ، قاحلة هى الأرواح وكبيرة ،
قاحلة إِذْ ما من أحد يجتازها سواها –
وكبيرة إِذْ من هناك يظهر كل شئ ،
وكل شئ قد مات .

هائلة هى الصحارى ، ياروحى
هائلة هى الصحارى

لم أحصل على تذكرة الدخول إلى الحياة ،

أخطأت بوَّابة الإحساس .

لم تُوجد قَطٌّ رغبة ولا فرصة لم أُهدرها

لم يبق لى اليوم ، (بانتظار السفر) ، مع

الحقيبة مفتوحة بانتظار ترتيبها المؤجّل ،

جالساً على المقعد صحبة قمصان غير لائقة ،

لم يبق لى اليوم (بمعزل عَمَّا يُسَبِّبه

لِى جلوسى هكذا من ضيق)

سوى أنْ أعرف هذا :

كبيرة هى الصحارى ، كل شئ صحراء ،

كبيرة هى الحياة ، ولاقيمة بتاتاً لأنْ توجد الحياة .

سَأُرتِّب الحقيبة ، بِعَينىَّ سَأُرَتِّبها على نحو أفضل :

التفكير فى ترتيبها خَيْرٌ من ترتيبها بيدىَّ المصطنعتين

(أقول ، وأومن جيداً بما أقول)

أشعل السيجارة كى أؤجل السفر ،

كى أؤجل جميع الأسفار ،

كى أُؤَجل الكون بتمامه

عُدْ غَداً إلىَّ أيُّها الواقع

أيها الناس ، حَسْبُكم هذا اليوم .

أيها الحاضر المطلق !أعرف ، هناك يوم آخر

ألاَّ أكُون خَيْرٌ من أن أكون هكذا !

فلتشتروا شوكولاطات للطفل

الذى كُنْتُه خطأً

اسْحَبُوا اللاّفتة ، لأنَّ اللانهائى

غداً سيجئ ،

ولكن يتحتَّم أَنْ أَلُمَّ الحقيبة ،

أَنْ أَلُمَّ بالقوة الحقيبة ،

الحقيبة .

لا أستطيع حَمْل القُمْصان فى الخيال

والحقيبة فى العقل

أجل ، لقد أمضيتُ حياتى كلها بدون إعداد الحقيبة

أمضيتها جالساً على طرف

كومة القمصان

أجترُّ المصير ، كثور لمْ يَصِلْ بعد إلى هاپيس

عَلَيَّ أن أَلُمَّ حقيبة الوجود

عليَّ أَنْ أُوجَد لاَمًّا حقائبى

رماد السيجارة يسقط فوق قميص

كومةِ القصمان .

أنظر حوالىَّ وأتأكَّدُ من استغراقى فى النوم

أعرف فقط أنَّ علىَّ أن أُهَيِّئ الحقيبة ،

وأن الصحارى شاسعة ، وكل شئ صحراء

وأن هناك ...

فجأة أنهض ، كل القياصرة بداخلى ينهضون .

سوف أُهَيِّئَ الحقيبة ، على نحو نهائى

هَاهْ ، لقد رَتَّبتُها و أحكمت إقفالها .

عَلَيَّ أَنْ أَرَى كيف سيمضون بها من هنا .

كبيرةٌ هى الصحارى ، كل شئ صحراء ،
عَدَا مَا جَاءَ خطأ أو سهواً بالطبع .
ما أبأس الروح الإنسانية لا واحات أمامها
سوى فى الصحراء المواجهة
سيكون من الأجدى أن أَلُمَّ الحقيبة

4 مايو 1930

فرناندو پيسوا

ثانياً : مختارات شعرية I

ترجمة : المهدى أخريف

(تقــديم)

تعـود صلتى بپيسـوا إلى بداية الثمـانينات حينما قـرأت « نُتفَـاً » من شـعـره فى إحـدى المجالات الأدبيـة الإسبانية ، مترجمة عن البرتغالية . كنت قد سمعت عنه أو مَرَرتُ بإشارات تخص « حـالته » النادره .. لا أتذكر . وحينما قرأت « نشيد الظّفر » فى ترجمة إسبانية أخرى ألهَبتْ إحـسـاسـى نكَهَـتُـها المتمـيـزة ضـمن أشـعـار المسـتـقـبليـين . ومنذ ذلك اللقـاء بدأت « حـالة » پيسـوا تغـزونى بالتـدريج مـع اتّسـاع اطّلاعى على أشـعـاره وأشـعار أنداده الذين ابتكرهـم بضرب من اللّعب فإذا هُمْ يتحوّلون إلى « شـعـراء حقيقيين » لكل واحد منهم طريقه المسـتـقل داخل ذاته هو ، مـوصـولين به ، منفصلين عنه فى آن ، عبر لُعبة تناوب تمثيلى باهرة تحوّل هو نفسه فـيهـا إلى مـجرد اسـم من جملة أسـمـاء ، شـاعر ضـمن شـعراء خرجوا مِن رَحم تخيُّلية واحدة ، تعبيرا عن تعدُّد ذَواتىٍّ شـعرى لا مثيل له فى تاريخ الشـعر الإنسـانى .

لقد أثَارَ طريقى عكوفى على قراءة رسـائلة وبعض كتاباته النثرية التى نَشَرَ كَما هائلاً منها باسـم عشـرات الأقنعة والأسماء المستعارة . كمّا أنّ اطّلاعى على بعض الدراسـات الأسـاسـيـة حـول « ظاهرة پيسـوا » وآثاره الأدبية – خـاصـة دراسـة أوكتافيو پاث المستبصـرة التى تتصدّر هذه المختارات – قدأتَاحَ لى فهماً أفضل لإنتاجه الشـعرى .

وهكذا وجدت نفسى أنتقل تلقائيا من الافتتان والإنصات إلى حالة من « التماهى » مع عوالم الشعر المقروءة تمثَّلت فى تجربة الترجمة التى انخرطت فيها بشغف منذ ثلاث سنوات ، والتى انصبَّتْ حول نصوص متنوعة للشاعر البرتغالى وأنداده مع عناية خاصة بألباروڤى كامپوس .

تجربة مضنية ممتعة أثمرت بعض النجاح ، كما أسفرتْ عن إخفاقات عديدة ، لكنها غَمَرتْ قَلقى الشعرى الخاص بفيض من الكشوف والأسئلة . لقد سعدتُ بالإقامة فى مناطق وعرة من الشعر الجذرى ، ومن شعر الشعر ،الشعر الصدى ، الشعر الخواء ، حيث الجراح السرِّيّة عارية ، حيث الصور ، الهذيانات ، المونولوجات ، الأصوات الخانية العاتية ؛ كلها تشظّيات حيّة لكينونة متفرِّدة متعددة متمردة على شرطها الوجودى تعيش الوهم واقعاً والواقع وهماً .

كان طموحى أن أهّيئ للنشر مختارات موسّعة متكاملة لأشعار پيسوا وأنداده ، لكنَّ بروزَ صعوبات غير متوقَّعة آمل تذليلها مستقبلاً ، أجبرنى على الاكتفاء بنشر هذه المختارات الخاصة بألباروڤى كامپوس ، وتضم ثلاث قصائد ذات تمثيل عالٍ لعالَم هذا النديد الأكثر جسارة وغزارة وتعقيداً من كل الأنداد .

وإنَّنى لَمَدينٌ للصديق د . محمد برادة بالعديد من

التصويبات والتنقيحات التى أدخلتْ على هذه الترجمة ؛ وذلك خلال المراجعة الُمدَقِّقَة التى قام بها للنصوص الشعرية وللدراسة ، والتى عملنا فيها معاً على « معالجة » أبرز الاختلافات الموجودة بين النص الفرنسى – الأدق فى جوانب معينة – والنص الإسبانى معالجة أفادت النص العربى وقوَّمته .

كما أننى مَدينٌ للصديق الشاعر محمد الأشعرى بما أمدّنى به من اقتراحات نيِّرة ومن تحفيز ومؤازرة هما من صميم « تواطئنا الشعرى المشترك » .

ولا يفوتنى أخيراً أن أعبِّر عن امتنانى للأصدقاء : بيدرو ڤيلاسكيز دُوروُ ، وإدمون عمران المليح وفرانسيسكو طاركينى والشاعر محمود درويش لتشجيعهم ومساعدتهم .

المهدى أخريف

المجهول من لدن ذاته

أوكتافيوباث

ليس للشعراء بيوغرافيات ، أشعارهم هى بيوغرافياتهم ، وپيسوا الذى كان دائم الارتياب فى واقعية هذا العالم سوف يوافق ، دُون تردُّد ، على المضىِّ إلى أشعاره مباشرة ، متجاهلا حوادث ومصادفات وجوده الأرضى . لا يُوجد فى حياته شئ غير متوقَّع ، لاشئ ، باستثناء أشعاره . لا أعتقد أن « حالته » ينبغى أن تخضع لهذه المفردة الثقيلة « حالة » . سأفسِّر لَكُمْ : على ضوء أشعاره ، أرى أن هذه « الحالة » تنتفى تماما . وماتبقَّى من السِّرِّ مكتوبٌ فى اسمه : لأن Pessoa تعنى « شخص » فى البرتغالية ، وقد تحدَّرتْ من لفظة Persona قناع الممثلين الرومانيين . إنَّه ، إذن ، قناع ، شخصية خيالية ، لا أحد : بالإمكان اختزال حياة پيسوا فى العبور بين لا واقعية حياته اليومية وواقعيَّة تخيلاته . هذه التخيُّلات تتمثَّل فى هؤلاء الشعراء : ألبرُطو كاييرو ، ألْبَارُودى كامپوس ، ريكاردو رييس . وفوق كل شئ فرناندو پيسوا نفسه . وهكذا فإنَّ التذكير بالوقائع البارزة لحياته ليس عديم الجدوى ، شريطة أن نعلم أنَّ الأمر يتعلق فحسب بآثار ظِّل ما . پيسوا الحقيقى هو شخص آخر .

فى لشبونة وُلِد عام 1888 . فَقَدَ أباه وهو صغير ، فتزوَّجتْ أمُّه من جديد ، وانتقلتْ سنة 1896 مع أبنائها إلى دوربان بإفريقيا الجنوبية ؛ حيث أُرسل زَوجها

الثانى إلى هناك كقنصل للبرتغال . وهناك تلقّى پيسوا تربية إنجليزية . عاد إلى لشبونة عام 1905 وقد أنهى دراسته الثانوية وهو على وشك الالتحاق بجامعة الكابو . شاعر مزدوج اللغة . سوف يغدو التأثير الساكسونى مكوِّناً ثابتاً فى فكره وكتابته . فى عام 1907 يترك كلية الآداب فى لشبونة وينشئ مطبعة صغيرة . إن لفظة « فشل » سوف تتكرر باستمرارٍ فى حياته . اشتغل فيما بعد كمحرر متجول للمراسلات التجارية بالإنجليزية والفرنسية . شغل متواضع سيمنحه القُوتَ طيلة حياته تقريباً . أكيدٌ أنَّ أبواب الجامعة قد فُتحت أمامَه بحذر ذات مَرّة . لكنه بكبرياء الخجلين رفض العرض . لقد كتبتُ « بحذر وكبرياء » ، ولربما كان ينبغى أن أقول : بفتور وواقعية : عام 1932 يتقدَّم بطلب الحصول على منصب موثّق فى إحدى المكتبات فيرفض طلبه . لكن ما من تمرُّد فى حياته : وحده التواضع الشّبيه بالأنفة.

منذ عودته من جنوب إفريقيا لم يغادر لشبونة قط . سوف يعيش فى البداية فى دار عتيقة مع خالة عانس وجدَّة مجنونة . ثم مع خالة أخرى بعد ذلك ، ثم سيمضى فترة مع أمِّه وقد تَرمَّلتْ من جديد . وماتبقَّى سيعيشه فى منازل مشبوهة . يَرى الأصدقاء فى المقهى وفى الشارع . شرِّيب مُتَوحِّد فى حانات الحى القديم . تفاصيل أخرى ؟ .. عام 1916 خطط للعمل كمنجِّم . وفى

عـام 1920 سـوف يعـرف الحب أو سـوف يظن أنه أحب مستخدمة تجارية : لم تَدُم العلاقة طويلاً : « إنه قَدَرى » يقول فى رسالة القطيعة « إنها تنتمى إلى شريعة أخرى لاترتاب أنت فى وجودها » . لا يُعرف شئ عن تجارب عاطفية أخرى له . ثمة تَيَّار لوطيّة معذَّبة يسرى عَبْرَ قصيدتيه « نشيد بحرى » و « تحية إلى ويتمان » ، وهما العملان الكبيران اللذان يحملان على التفكير فى غارسيا لوركا الذى سيكتب ، بعد خمس عشرة سنة « شاعر فى نيويورك » . غير أن ألبارودى كامپوس ، محترف الاستفزاز ، ليس كُلَّ پيسوا . ثمة شعراء آخرون فى پيسوا . ذلك العفيف الذى أهواؤه كلُّها محض تخيُّلات . أو بالأحرى : من عيبه الأكبر هو التخيُّل ؛ لذلك فهو لا يتململ من مقعده . وهناك پيسوا آخر لا ينتمى إلى الحياة اليومية ولا إلى الأدب ؛ هو التلميذ ، والمبتدئ . لاشئ حول هذا الـ پيسوا يمكن أو ينبغى أن يُقال : كشف ؟ خداع ؟ تزييف ذاتى ؟ ربما كُلُّ هذا مجتمعا . إن پيسوا ، مثل معلِّم إحدى سونيتاته الهرطقية ، يعلَمُ ويَصْمت .

أنكلومان [1] . حسير النظر . مهذب . ميَّال إلى الهروب . داكن الثياب ، كتوم وعائلى . كَوْنى يبشر بالقومية . بحَّاثة جليل فى أمور تافهة . هَازلٌ كبير لا يبتسم ألبتة . ويجمِّد فينا الدم . مبتكر شعراء آخرين

ومدمِّر ذاته . خَالقُ مفَارقات كالماء صافية ومدوِّخة كالماء : أن تتنكر هو أن تتعرَّف .. وهو الغامض الذى لا يزرع الغموض . غامض كقمر منتصف النهار . صموت هو شبح منتصف النهار البرتغالى . من هو پيسوا ؟

پيير أوركاد الذى عرفه فى أخريات حياته يكتب عنه « لم أجرؤ أبداً حين وَدَّعته على أن أستدير بوجهى . كانت بى خشية من أنْ أراه وقد تلاشى وذاب فى الهواء » . أو نسيتُ شيئاً ؟ لقد توفى عام 1935 فى لشبونة من تشمع فى الكبد . تاركاً كراستين من القصائد بالإنجليزية ، وكتاباً نحيلاً من الأشعار البرتغالية ، وصندوقاً مليئاً بالمخطوطات .

ينبغى أن نصف حياته الخارجية بكونها سائرة فى الظل الفاتر . أدب الهوامش . منطقة مضاءة سَيِّئاً حيث تتحرَّك - متواطئة أم مجنونة ؟ - الظلال الحائرة لألباروديى كاميوس ، ريكاردو رييس وفرناندو پيسوا الذين تضيئهم للحظة معيَّنة الأنوار المفاجئة للفضيحة والجدل . ثم لا شئ بعدئذ غير العتمة من جديد . إنه المجهول - تقريباً المشهور - تقريباً . لا أحد يجهل اسم فرناندو پيسوا ، لكن ما أقلَّ من يعلم مَنْ هو ، وماذا يعمل . إنَّه لَذُو صيت برتغالى إسبانى وإسبانى أمريكى : « لا سمكم رنَّة معروفة لدىَّ . سيادتكم صحفى أم مخرج سينمائى ؟! » . لا أتخيَّلُ پيسوا حزينا لهذا

التلبيس . رُبَّما يكون شكَّل درساً له بالأحرى . لقد عرف دائما مواسم من الفوران الأدبى موصولة بمواسم من الخمود . وإذا كانت لحظات ظهوره « الأدبى » معزولة ومتشنِّجة ، عبارة عن ضربات بالكفٍّ لإرعاب القطط الأربعة للأدب الرسمى ، فإنَّ عمله المتوحِّد تميَّز بالثبات والاستمرارية . ولسوف يمضي ككُلِّ الكسالى الكبار حياته فى وضع جَرْد بأسماء كتب لن يكتبها أبداً . وعلى غرار ما يحدث للخامدين أيضاً إذا ما كانوا مشبوبى العاطفة والخيال ، ولكى لا ينفجر ، لكى لا يُصاب بالجنون ، وخفية تقريبا ، وعلى هامش مشاريعه الكبرى ، يكتب كلَّ يوم قصيدة ، مقالة ، خاطرة تأملية . تشتيت وضغط . جذبٌ وشد .. وكل شئ موسوم بالعلامة نفسها : بدافع الحاجة كتبت تلك النصوص . وهذه القدرية هى التى تميِّز كاتبا حقيقيا عن آخر يمتلك شيئاً اسمه ببساطة : العبقرية .

فى الإنجليزية سوف يكتب أشعاره الأولى بين 1905 و 1908 . فى تلك الفترة كان يقرأ ملتون ، شلى ، كيتس ، إدغار پو . فيما بعد سيكتشف بودلير ، ويخالط عدداً من الشعراء البرتغاليين الثانويين . وبطريقة لا شعورية سوف يعود إلى لُغَته الوطنية ، وإن لم يتخلَّ قَطُّ عن الكتابة بالإنجليزية . وحتى سنة 1912 كانت كفَّة التأثر بالقصيدة الرمزية والـ Saudasismo [2] هى

الراجحة . فى تلك السنة نشر محاولاته الأولى فى مجلة AAguia لسان حال « النهضة البرتغالية » . وتمثّلتْ مساهماتُه فى سلسلة من المقالات حول الشعر البرتغالى . وإنّها لظاهرة پيسويّةٌ حقا أن يبدأ بالنقد الأدبى حياته ككاتب . ليس أقل دلالة من ذلك عنوان أحد نصوصه Na Flaresta de Al - beamento . إن موضوعة الانخطاف والبحث عن الذات فى الغابة المسحورة أو فى المدينة المجردة لَهِى أكبر من مجرد موضوع . إنّها جوهر عمله . وتلك كانت سنوات بحث لديه ، ولن يتأخر فى ابتداع ما ابتدعه .

سنة 1913 يتعرف على شابّين سوف يغدوان رفيقيه الأكيدين فى مغامرته المستقبلية القصيرة الأمد : الرسام ألمادا نيغريرا والشاعر ماريودى ساكارنيرو وصداقات أخرى : أرماندو كورتيس رودريغيز ، لويس دى مونطالبور ، وخوصى پاشيكو الذين كانوا ما يزالون سجناء القصيدة « المنحطّة » ، والذين سيحاولون بغرور تجديد التيار الرّمزى . پيسوا سيبتكر الـ El Pau-lismo . وبسرعة ومن خلال ساكارنيرو المقيم فى باريس ، والذى جمعته به مراسلات محمومة سيأتى الإعلان عن التمرُّد الحداثى الكبير :.مرينيتى . إن خصوبة المستقبلية لا يمكن أن تنكر ولو أنّ تألُّقها قد خبا فيما بعد بسبب تنازلات مؤسسها .

صدى الحركة كان لحظياً ، ربما لأنها كانت تمرُّداً أكثر من كونها ثورة . كانت الشرارة الأولى ، الشرارة التى أطلقت البارودة ، ثم سرت النار من طرف إلى آخر ، من موسكو إلى لشبونة . ثلاثة شعراء كبار : أبوللينر ، ماياكوفسكى وپيسوا . السنة الموالية ؛ أى 1914 ستكون بالنسبة للشاعر البرتغالى سنة الاكتشاف أو بعبارة أدق : سنة الولادة : ظهور ألبرطو كاييرو وتلامذته . المستقبلى ألبارودى كامپوس والنيوكلاسيكى ريكاردو رييس .

إن هجوم « الأنداد » [3] هو حدث داخلى بمثابة تحضير للحدث الخارجى العلنى : انفجار « أورفى » . إذ فى أبريل من سنة 1915 سيظهر العدد الأول من المجلة المعنونة باسم « أورفى » ؛ فى يوليو يظهر العدد الثانى والأخير . أقليل هذا ؟ بل هو بالأحرى زائد على اللزوم . فالمجموعة لم تكن متجانسة ، والاسم نفسه يدل على أثر الرمزية .

لقد لاحظ النقاد البرتغاليون عند كارنيرو ، رغم عنفيته ، الإصرار « الانحطاطى » . أما لدى پيسوا فالانقسام خالص : ألبارودى كامپوس مستقبلى خالص . أما فرناندو پيسوا فيظل باستمرار شاعراً پاولياً .

الجمهور استقبل المجلّة بالسخط ، نصوص ساكرنيرو وكاميوس أثارت هياج الصحفيين المألوف . بعد الشتائم جاءت السخرية ثم الصمت .

لقد اكتملت الحلقة إذن . ماذا تبقى منها ؟ في العدد الأول ظهرت قصيدة « نشيد الظفر » . في العدد الثاني : قصيدة « نشيد بحري » تمتلك الأولى رغم كلماتها المكرورة وإسمالاتها ، النغمة المباشرة لقصيدة طبكيرية ، بما تنطوى عليه من إحساس بضآلة وزن الإنسان في مواجهة الثقل المتوحّش للحياة الاجتماعية . أما القصيدة الثانية فهي أكبر من مجّرد ألعاب نار اصطناعية للشعر المستقبلي ، إنها روح عظيمة تهذى بصوت عالٍ وصرختها ليست حيوانية بتاتاً ولا فوق إنسانية والشاعر ليس « إلاها صغيراً » ، بل هو كائن سقوط . والقصيدتان معاً تذكّران بويتمان أكثر من مرينيتي ، بويتمان منْزو ونَكّار . ليس هذا كل شيء : فالتناقض هو جوهر النسق ، وهو شكل تماسكه الحيوى : في نفس الوقت ، وقت كتابة النشيدين سيكتب أيضاً : « راعي القطيع » : الكتاب اليتيم لألبرطو كاييرو ، القصائد المُلَتْنَنة لريكاردو رييس و Epithalamium y Antinous « وهما – كما يقول پيسوا – قصيدتان من شعري الإنجليزى ، جدُّ مخالفتين للمألوف ، ولذلك لا يمكن نشرهما » .

فـجـأة تـوقَّـفـتْ مـغـامـرة مـجلة « أورفى » ، بعضُ محرريها فَضَّل الإنسحاب بسبب هجمات الصحفيين ، وبفعل الذعر ، ربما ، من مغالاة ألبارودى كامبوس .. ساكارنيرو المتقلِّب دائما سيعود إلى باريس ، لينتحر بعد عام من ذلك ... محاولة جديدة تظهر للوجود عام 1917 : العَدَد الوحيد من مجلَّة المستقبلية البرتغالية بإدارة ألمادا نيغريرا ، والذى تضمَّن الـ Ultimatum لألبارودى كامپوس . واليوم من العسير قراءة تلك التشهيرات بعناية ، رغم أن ثمة من لايزال يحفظ لُوذعيَّتها المفيدة :

« من دانونزيو ، إلى دون جوان ، إلى برنارد شو ذلك الوَرَم البارد ، إلى كبلنج الإمبريالى المهتم بسقط المتاع » .

قصة مجلة أورفى تنتهى إذاً بتفرُّق المجموعة وبموت واحد من مُرشديها . وينبغى انتظار خمس عشرة سنة وجيلاً آخر جديداً . ليس فى هذا الأمر مايُدْهش . المدهش هو كون المجوعة ظهرتْ سابقة زمنها ومجتمعها . تُرى ما الذى كان يُكْتَبُ فى إسبانيا وفى أمريكا اللاتينية خلال تلك السنوات ؟

الفترة الموالية كانت فترة خُمول نسبى نشر فيها پيسوا كُرَّاستَىْ شعر بالإنجليزية 35 Sonnets y Auti-

nous عَلَّقتْ عليهما « التايمز » اللندنية و « كَلاسكَو هيرالد » بكثير من المجاملة وقليل من الحماس . فى سنة 1922 تظهر مساهمة پيسوا الأولى فى مُعَاصِر ، مجلة أدبية جديدة تحت عنوان : « رجل البنك الفوضوى » .. وإلى تلك السنوات تنتمى أهواؤه السياسية : مدائح للقومية وللنظام الاستبدادى . إنَّ الواقع دائما يخيِّب ظَنَّه ويُجبره على التكذيب : سوف يُضطرُّ مَرتَّين إلى مواجهة الرأى العام من جهة والكنيسة والأخلاق السائدة من جهة أخرى . فى المرة الأولى من أجل الدّفاع عن أنطونيو بوطُّو مؤلف : قصائد حب أورانوسية . فى المرة الثانية ضد « رابطة العمل الطلابى » التى كانت تشدد الخناق على التفكير الحُرِّ بدعوى القضاء على ما يسمى بـ « أدب سَدوم » . إنَّ القيصر أخلاقى دائما . ألبارودى كامپوس سوف يوِّزع ورقة تحت عنوان : تنبيه من أجل الأخلاق . فرناندو پيسوا سينشر بيانا ؛ أمَّا الُمعتدَى عليه رَاوول ليال فيكتب منشورا بعنوان : « درس أخلاقى لطلبة لشبونة ولارتيابيّة الكنيسة الكاثوليكية » . لقد انتقل مركز الثقل من الفن الحر إلى حريّة الفن . فالطبيعة المحافظة لمجتمعنا تجعل المبدع محكوما عليه بالهرطقة والاعتراض . ولاشك أن الفنان اللامع لا يسعى إلى تجنب هذه المخاطرة الأخلاقية .

فـي عـام 1924 صـدرت Atena : مـجلَّة جـديدة استمرَّتْ لخمسة أعداد فقط ، الواقع أن Atena هي جسر رابط بين أورفي وبين شباب مجلة حضور (1927) . كل جيل سيختار ، على ما يبدو ، تقليده الخاص . لقد تَمَّ اكتشاف پيسوا من طرف المجموعة الجديدة : في النهاية عثر على مخاطبين ، متأخراً جداً كما هي العادة . بعد ذلك بزمن قصير وقبل سنة واحدة على وفاته ، يقع الحدث المضحك ، حَدَثُ المسابقة الشعرية المنظَّمة من طرف لجنة الإشهار الوطني . موضوع المسابقة حُدِّد بوضوح : التغني بأمجاد الوطن والإمبراطورية . أرسل پيسوا « رسالة » وهي عبارة عن قصائد تنطوي على تأويل « تنجيمي » ورمزي للتاريخ البرتغالي . ولاشك أنَّها تركتْ الموظَّفين المكلَّفين بالمسابقة في غاية الحيرة . مَنَحوه جائزة من « الدرجة الثانية » . فكان ذلك آخر اختبار أدبي له .

كل شئ يبدأ في الثامن منْ مارس من سنة 1914 . لكن مِنَ الأفضل نقل فقرة من رسالة لپيسوا إلى أحد شبَّان مجلة حضور اسمه أدولفو كاساييس مونتيرو : « حوالي سنة 1912 راودتني فكرة كتابة قصائد ذات صبغة وثنية . لفَّقتُ بعض الأبيات على نمط الشعر الحر (ليس وفق أسلوب ألْبَارُودِي كاميوس) . تخلَّيتُ عن المحاولة فيما بعد . ثم في غمرة ما يشبه

الظلال الغامضة تَبَينتُ صورة مُبْهمة للشخص الذى كنتهُ فى تلك الأثناء (كان ريكاردو رييس قَدْ وُلد ، من غير أن أعلم) . بَعْدَ عام ونصف أو عامين عَنَّ لىَ أن أُمَازح « ساكارنيرو » باختراع شاعر رعوي ، معقَّد بعض الشئ وأبرزه للوجود كمخلوق حقيقى ، لا أتذكر الآن على أيِّ نحو . أمضيتُ بضعة أيَّام ، مُحَاولاً ، من دون أن أحقِّق شيئا . ذات يوم عندما كنتُ قد تخَلَّيت بصفة نهائية عن المشروع – وكان ذلك يوم 8 مارس 1914 – دَنَوتُ من خزانة عالية وتَناولتُ حزمة أوراق . شرعت فى الكتابة واقفاً كما أفعل دائما قدر مستطاعى . وهكذا كتبتُ ثلاثين قصيدة ونيِّفاً بتتابع ودون توقُّف ، فى لحظة انخطاف لا أستطيع تحديد طبيعتها . لقد كان يومَ الظَّفَر فى حياتى ، ولن يتكرر عندى مثله قط . انطلقت من عنوان محدَّد : راعى القطيع . أمَّا مَاتَلاُه فقد كان انكشافاً لأحد مَا فى داخلى أطلقتُ عليه مباشرة هذا الاسم ألبرطو كاييرو . لتغفرلى لا معقولِّية هذه الجملة : فيَّ ظَهَر مُعلِّمي : هذا هو الإحساس الفوري الذى خامبرنى . وهكذا ما إِنْ أنهيتُ كتَابة الثلاثين قصيدة حتَّى كتبتُ فى أوراق أخرى قصيدة مطر زائغ ، كتبتها كاملة وعلى الفور منسوبة لفرناندو پيسوا ... فكانت عودة من فرناندو پيسوا – ألبرطو كاييرو إلى فرناندو پيسوا الصِّرف . أو بالأحرى : كانت رَدَّ فعل مِنْ فرناندو

پيسوا ضدَّ انتفاء وجوده من خلال ألبرطو كاييرو ...
بظهور كاييرو سَعيتُ فيما بعد بطريقة غريزية
ولاواعية إلى اكتشاف تلامذة له . وهكذا انتزعت من
وثنيّته الزائفة ريكاردو ريبيس المستتر الذى اكتشفتُ
اسمه الذى كنتُ أراه به فى تلك اللحظة فألْصقته به .
بغتة ومن اشتقاق معارض لاتِّجاه ريكاردو ريبيس انبثق
باندفاع مخلوقٌ آخر من آلية الكتابة بلا توقُّف ولا
تعديلات تَدَفَّقَ نشيد بحري لألبارودى كامپوس : نشيد
موسوم باسمه المنسوب إلى شخص مُسمًّى » . لا أدرى
ما الذى يمكن أن يُضاف إلى هذا الاعتراف .

يُقدِّم لنا علم النفس تفسيرات شَتَّى « لهذه الظاهرة » .
پيسوا نفسه الذى اهتم بحالته يطرح علينا تفسيرين أو
ثلاثة . أحدها ذو طبيعة مَرَضية فَظَّة : « يُحتمل أن أكُونَ
هستيريا نوريستينيا ... وهذا ما يفسِّر ، جيِّداً أم سيئاً ،
الأصل العضوى لأنْدَادى » عَلىَّ أن أقول « أقلّ » بدلاً من
القول « جيِّداً أم سيِّئاً » . عَيْبُ هذه الافتراضات لا يكمن
فى كونها باطلة : إنها غير مكتملة . المختل عَصَبيّاً هو
شخص ممسوس . لكن أنعُدُّ المتحكِّم فى اختلالاته
مريضا ؟

يعانى المختل من ضغط وساوسه . أما المبدع
فيتملَّكُها ويحوِّلها : يحكى پيسوا كيف أنَّه مُنذ كان طفلاً
وهو يعيش وسط شخوص متخيَّلين .

« لا أدرى إن كانت الشخوص هى العديمة الوجود أم أننى أنا الذى لا وجود له . لا ينبغى أن نكون دوغمائيين فى مثل هذه الحالات » .

أنْدَادُ پيسوا مُحَاطون بكتلة من أنصاف مخلوقات : بارون الـ Teive ؛ جان سيول الصحفى الفرنسى الهجَّاء ؛ برنارد سوارس شبح الشبح الأكبر ڤيسنطى غيدس ؛ باشيكو ، النسخة الرديئة من كامپوس .. ليسوا كتاباً كلهم : هناك م . ر . . غروس المشارك دون مَلل فى مسابقات الألغاز والكلمات المتقاطعة فى المجلات الإنجليزية (نصف معصوم حسب پيسوا ...) وألكساندر سيرش وآخرون .. وهذا كله – فضلاً عن عزلته وإدمانه الكحولى المتفطِّن وأمور أخرى عديدة – يمنحنا أضواء حول مزاجه المتميز ، لكنه لا يفسِّر لنا أشعاره التى هى بحق الشئ الوحيد الذى يهمُّنا .

نفس الشئ يحدث مع فرضية « المنجِّم » التى لا يستخدمها پيسوا الميَّال إلى التحليل زيادة على اللزوم ، بما يكفى من انفتاح ، وإن كان لا يكفُّ عن استحضارها .

معلوم أن الأرواح التى ترشد أقلام الوسطاء ، حتى وإن كانت أرواح يوروپيدس أو فكتور هيجو توحى ببلادة أدبية مضلِّلة . ثمت آخرون يجازفون بالقول إن

الأمـر يتـعلق بتـزييف . الخطأ هنا ينطوى على فظاظة مضاعفة . فلا پيسـوا كذَّاب ولا عمله خدعة . ثمة شئ مّا على درجـة فظيـعـة من الابتـذال فى العـقليـة الحـديثـة : النـاس الذين يتـسـاهلون مـع كل أشـكال الأكـاذيب الشنيـعـة فـى الحـياة الواقـعـيـة ، وكل .. الواقـعـيات .. القميئة لا يطيقون وجود الأسطورة : وتلك هى حقيقة عمل پيسوا : إنَّه أسطورة وتخيل . أن ننسى أنَّ كاييرو وريييس وكامپوس مخلوقات شعرية معناهُ أننا ننسى أكـثـر من اللازم . وكـمـا هو الشـأن فى كل إبداع فـإنَّ أولائك الشـعـراء قـد وُلدوا من اللـعب . الفـن ضـرب من اللعب ، فـضـلاً عن أمور أخرى ، لكن لا يوجد فن بدون لعب .

إن صـحـة وجـود الأنداد مـتـوقّـفـة على تماسكها الشعرى ، وعلى احتماليتها وبهذا المعنى فهى مخلوقات ضـرورية . إذا لم يكن على پيسـوا أن يكرِّس حيـاته كى يعيش مخلوقاته ويبدعها ؛ ما يحكيه الآن لا يتعلق بما إذا كانوا ضـروريين لخـالقـهم ، بل يتـعلّق بما إذا كـانوا ضـروريين لنا نحن أيضـا . فـپيسـوا قارئهم الأول ، لم يَرْتَبْ فى واقعيتهم . لقد توصَّل رييس وكامپوس إلى قـول مـالم يكن ليقـوله هـو . بمناقَـضَـتـهم له أظهروه ، وبإظهارهم له أجبروه على الابتكار . نحن نكتب من أجل أن نكون من نحن أو من أجل ذلك الذى لسنا إياه ؟

وسـواء فى هـذه الحـالة أو تلك فـإنما عن ذواتنا نبـحث . وإذا حالفنـا الحظ فى أن نعثر علـى ذواتنا – كعلامـة علـى الإبداع – نكتشـف أنَّنا عبـارة عن مـجهـول . دائمـا الآخـر ، دائمـا هو ، غـير مـفصـول ، غـريب مع وجـهك ووجـهى ، وأنت دائما معى ودائما وحيد .

إنَّ الأنداد ليسـوا بأقنعـة أدبيـة : « مـايكتبـه فـرنـانـدو پيـسـوا ينتـمى إلـى صنفين من الأعـمـال نسـتطيع تسـمـيتـهـمـا : heteroninos y ortonimos [4] . لا ينبـغى اعتبـار الأنـداد من قبـيل الأعـمال المجـهولـة المـؤلف أو المنتـحلة ؛ لأنهـا ليست كـذلك فى الحـقـيقـة . العـمل المنتـحل أو المسـتـعـار الاسم ينتـمى للمؤلـف بشـخـصـه الحقيقـى إلاَّ إذا وقَّعه باسم آخـر . أمـا النَّديد فـهو المؤلف خـارج شـخـصـيتـه ... » . جـيـراردو نرڤـال هو الاسـم المستعار لـ جيرار لابرونى . كاييرو هو شخص آخر فى پيسـوا : يسـتـحيل أن نقـع فـى الخـلـط . حـالة أنطونـيو مـاشـادو هى الأقـرب إلينا . أبيل مـارتين وخـوان دى مـا يرينا ليسا كل أنطونيو مـاشـادو :إنَّهمـا قنـاعـان : لكنهمـا قناعان شـفَّافـان : لا يخـتلف أىُّ نص لماشـادو عن آخـر لما يرينا . وعـلاوة على ذلك فمـاشـادو ليس ممسـوسـاً من قـبل تخـيـلاته ، فـهى ليسـت مـخلوقـات مقـيـمة بـداخله تناقضـه وتَنْفيه .

وعلى العكس من ذلك ، فكاييرو ، رييس وكامپوس

هم أبطال رواية لم يكتبها پيسوا أبداً « أنا شاعر دراماتيكي » يصرِّح پيسوا في رسالة له إلى ج . غ سيمويس . ومع ذلك فعلاقة پيسوا بأنداده لاتتطابق مع تلك التي تجمع الكاتب المسرحي أو الروائي بشخصياته . إنَّه ليس مخترع شخوص – شعراء ، بل مبدع أعمال لـ شعراء . الفارق إذن رئيسي . كما يقول كسايس مونتيُرو : « لقد ابتكر سيراً للأعمال ولم يبتكر أعمالاً للسير » تلك الأعمال – بالإضافة إلى قصائد پيسوا المَكتوبة في مواجهتها ولأجلها وضدها في نفس الآن – هي أثره الشعري . وهو نفسه سيتحوَّل إلى مجرَّد عَمَل من جملة أعماله الشعرية ، من دون أن يملك حتى امتياز أن يصير ناقداً لتلك الزُّمرة من مخلوقاته النّدّية أو المستعارة . فرييس وكامپوس يعاملانه بنوع من التعجرف . بارون الـ Teive لَماماً يُحيِّيه . فيسنطي غيدس الوثائقي يشاكله كثيراً إلى حَدٍّ أنَّه عندما يصادفه في حانه أحد الأحياء يشعر بقليل من الرأفة تُجاه ذاته . فهو الساحر والمسحور بسحره ، الممسوس كلية من طرف أشباحه حيث يشعر بنفسه أسيراً لنظراتها ، ربما تحتقرهُ ، ربما تشفق عليه . إنَّ مخلوقاتنا تحكم علينا .

ألبرطوكايير هو معلِّمي . يشكل هذا التأكيد الحجر الأساس لكل أثره الأدبي . وبإمكاني أن أضيف : إن عمل

كاييرو هو التأكيد الوحيد الذى قَدَّمه پيسوا . كاييرو هو الشمس وحولها يدور رييس وكامپوس وپيسوا نفسه . جميعهم ينطوون على ذرَّات من النفى واللاواقعية : رييس يؤمن بالشكل . كامپوس بالإحساس . پيسوا بالرموز . أما كاييرو فلا يؤمن بشئ : إنه موجود فحسب . الشمس هى الحياة مترعة بذاتها . ليس للشمس نظر . كل إشعاعاتها هى نظرات متحوِّلة إلى حرارة ونور ؛ وليس للشمس وعى بذاتها ، لأن التفكير والكينونة فعل واحد فى ذاته .

كاييرو هو نقيض پيسوا ، هو اللاپيسوا . وعلاوة على ذلك كل ما لا يستطيع أن يكونه أىُّ شاعر حديث : الإنسان المتصالح مع الطبيعة ، قبل المسيحية ، أجل ، ولكن قبل ظهور العمل وقبل التاريخ وقبل الوعى . يرفض كاييرو ، لأجل الفعل الصرف للوجود ، ليس الإسطيطيقا الرمزية لپيسوا فحسب ، بل كافَّة الإسطيطيقات ، كافة القيم ، كافَّة الأفكار . أوَلَمْ يتبقَّ شئ ؟ يبقى كل شئ منقى من أشباح وهَلَلِ الثقافة . إنَّ العالم موجود لأنَّ حواسى تقول لى ، ذلك . وتقول لى فى نفس الآن ، إننى أيضاً موجود . أجل . سأموت . وسوف يموت العالم . غير أنَّ الموت أيضاً حياة . تأكيد كاييرو يُلغى الموت . إذ بإبطاله الوعى ، يُبطل العدم . وهو لا يجزم بأنَّ كون كل شئ

موجود هنا معناه الإقرار بفكرة مَّا . يقول : الكل يوجد . الكل موجود . وأكثر من ذلك يقول : إنه فحسب ماهو موجود . وما تبقّى محض أوهام . يتكفَّل كامپوس بوضع النقطة فوق الحرف : « لم يكن مُعَلِّمى وثنياً ، كان الوثنية بعينها » أمَّا أنا فأقول : لقد كان فكرة ما عن الوثنية . .

لم يتردَّدْ كاييرو حتى على المدارس [5] ، وحينما بلغه أنهم يطلقون عليه لقب « شاعر المادة » أراد أن يعرف ما هذا المذهب الذى نُسِب إليه . عند سماعه تفسير كامپوس لم يُخفِ اندهاشه : « إنها فكرةٌ قساوسة من غير دين . تقولون إنهم يقولون الفضاء غير متناه ؟ أودُّ أن أسألكم فى أىِّ فضاء شَاهَدُوا ذلك ؟ » وأمام ذهول تلميذه أكَّد كاييرو أنَّ الفضاء متناه : « ما لا حدود له ليس له وجود ... » فَرَدَّ عليه الآخر : « وماذا عن الأرقام ؟ بعد رقم 34 يأتى 35 ثم 36 وهكذا على التوالى ... » ظَلَّ كاييرو ينظر إليه بشفقة : « لكنها مجرد أرقام ! » ثم تابع قائلا بطفوليّة عجيبة : « هل يوجد رقم 34 فى الواقع ؟ » . هناك طرفة أخرى : سألوه ذات مرة : « أسَعيدٌ أنت مع نفسك ؟ » فأجاب : « لا .. أنا سعيد » . كاييرو ليس فيلسوفاً : إنَّه حكيم . المفكرون إنما يملكون أفكاراً ، بالنسبة إلى الحكيم : العيش والتفكير فعلان لا ينفصلان ؛ لذلك يستحيل عرض أفكار سقراط على

لاوتسو . لم يخِّلف الحكماء عقائد ، بل حَفْنة من التعاليم والألغاز والقصائد . شاونغتسى أكثر أمانة وصدقاً من أفلاطون . فهو لا يدَّعى إبلاغنا فلسفة ما ، بل فقط يقصُّ علينا بضع حكايات . الفلسفة غير منفصلة عن الحكاية . هى الحكاية ذاتها . مذهب الفيلسوف يحثه على النقض ، بينما حياة الحكيم لا تقبل أى نقض أو دحض . مَامن حكيم قال بإمكان تَعلُّم الحقيقة . مَا قَالهُ كُلُّ الحكماء أو جُلُّهم ، هو أن الشئ الوحيد الذى يستحقُّ أن يعاش هو تجربة الحقيقة . نقطة الضعف فى كاييرو لا تمكن فى أفكاره (التى هى مصدر قوته) بل هى مُتَضَمَّنة فى لاواقعية التَّجربة التى تقول بالتجسيد .

آدم فى إحدى المزارع البرتغالية بدون امرأة ، بدون أطفال وبدون إلاه : بلا وعى ولا عمل ولا دين . إحساس من ضمن أحاسيس ، كينونة من بين كينونات شتى . إذا كان الحجر حجراً فإنَّ كاييرو هُو كاييرو فى هذه اللحظة . أمَّا فيما بعد فكل واحد سيصير غير ما كانه أو يبقى مثلما كان . سيان هو أم مختلف : الكل سيان لأن الكل مختلف ، إن التسمية هى الكينونة . فاللفظة التى نسمى بها الحجر ليست الحجر ، لكنها تملك واقعية الحجر ذاتها . لا يقترح كاييرو تسميات للكائنات ؛ لذلك لا يقول قط ما إذا كان الحجر عقيقاً أم حصاة . وهل الشجرة شجرة صنوبر أم شجرة بلوط . كما أنَّه لا

يحاول تحقيق أيّ علائق مع الأشياء . إنّ لفظَة « كَأنَّ » لاَتَردُ ألبتة فى معجمه . كُلٌّ شئ مغمور بواقعيته الخاصة . وإذا كان كاييرو يتكلم فلأنَّ الإنسان حيوان ناطق مثل العصفور الذى هو حيوان مجنح . ينطق الإنسان تماماً مثلما يجرى النهر مثلما يهمى المطر . الشاعر الفطرى ليس بحاجة إلى تسمية الأشياء ؛ كلماته أشجار ، غيوم ، عناكب وسحالى . لا تلك العناكب التى أشاهدها ، بل تلك التى أتلفَّظ بها . يُصابُ كاييرو بالدهشة أمام فكرة كون الواقع يتعذَّر الإمساك به : إنه هناك . فى مواجهتنا ، حَسْبُنَا لمسه ، حَسْبُنَا النطق .

لن يكون عَسيراً أن نثبت لكاييرو أنَّ الواقع ليس أبداً فى متناولنا ، وأنَّ علينا أن نسعى لتملُّكه (مع ما فى ذلك أيضاً من مجازفة أن يتبخَّر فى أيدينا مع فعل الإمساك به أو يتحوَّل إلى شئ آخر : إلى فكرة ، أداة إلخ) . إنَّ الشاعر الفطري أسطورة ، لكنه أسطورة تؤسس القصيدة . يعلم الشاعر الواقعى أنَّ الكلمات والأشياء لا تتماثل ، ولذلك ومن أجل استعادة وحدة مؤقتة بين الإنسان والعالم ، يلجأ إلى تسمية الأشياء بواسطة الصور والإيقاعات والرموز والمقارنات . الكلمات ليست أشياء ؛ إنها الجسور التى نمدُّها بيننا وبين الأشياء . أمَّا الشاعر فهو وعى الكلمات أىْ ؛ أنه

نوسطالجيا واقعية ، واقع الأشياء . أكيد أن الكلمات قبل أن تصير أسماء كانت أشياء . كذلك كانت في أسطورة الشاعر الفطري قبل ظهور اللغة . إن الكلمات الغامضة لدى الشاعر الواقعي تستحضر في طياتها النطق السابق على ظهور اللغة ، تستحضر ذلك التقابل الفردوسي المتوائم . النطق الفطري الأول : الصمت الذي لا يقال فيه شئ ؛ لأن كل شئ قد قيل . كُلُّ شئ ينقال . من هذا الصمت الذي هو نطق بكر تتغذَّى لغة الشاعر . لقد كان پيسوا الشاعر الواقعي والإنسان المتشكك في حاجة إلى خلق شاعر فطري كي يُبرِّر قصيدته هو .

إن رييس وكاميوس وپيسوا يتلفَّظون بكلمات ميِّتة ومؤرَّخة ، كلمات ضياع وتشتيت ، هي بمثابة هاجس أو نوسطالجيا الوحدة المفقودة . ونحن نسمعها من أعماق صمت تلك الوحدة . ليس من قبيل الصدفة أن يموت كاييرو شاباً . قبل أن يبدأ تلامذته في إنتاج أعمالهم ، فهو الأساس الذي عليه يقومون ، وهو الصمت الذي يتغذَّون منه .

أكثر أنداد پيسوا طبيعية وبساطة هو أقلهم واقعية . وهو كذلك لأنه واقعي أكثر من اللازم . إنَّ الإنسان ، الإنسان الحديث خاصة ، ليس مكوَّنا من كل

ما هو واقعي فحسب . ليس كائناً متلاحماً كالطبيعة أو الأشياء ؛ الوعي بالذات هو حقيقته المتهافتة . كاييرو هو التأكيد المطلق للوجود . ومن ثم تبدو لنا كلماته بمثابة حقائق من زمن آخر ، من ذلك الزمن الذي كان الكل فيه واحداً غير متجزئ والكل فيه نفس الكل . أما الحاضر فما أشد رَهَافته وزئبقيته : مانكاد نسميه حتى يتبخَّر ! إن قناع السذاجة الذي يعرضه علينا كاييرو ليس هو الحكمة : أن نكون حكماء معناه أن نكفَّ عن معرفة أننا لسنا سُذَّجاً . پيسوا الذي كان يعرف ذلك كان الأقرب إلى الحكمة .

ألبارودي كامپوس هو الطرف الآخر . يعيش كاييرو في الحاضر اللازمني للأطفال والحيوانات . بينما المستقبلي كامپوس يعيش في اللحظة . بالنسبة للأول قريته هي مركز العالم . أما الآخر فهو كوني لا مركز له ، وهو منفيٌّ في ذلك اللامكان الذي هو كل الأمكنة . ومع ذلك فَهُما يتشابهان : معاً يستخدمان الشعر الحر ، معاً ينتهكان اللغة البرتغالية ، معاً لا يتجنبان الرَّكاكة ، ولا يؤمنان سوى بما تلمسه أيديهما ، معاً يزدريان الأفكار وخارج التاريخ يعيشان . كاييرو الشاعر الفطري ، هو من لم يستطع پيسوا أن يكونه ؛ كامپوس المتصعلك هو من كان بإمكانه أن يكونه ولم يكنه . إنَّهما يمثلان الإمكانيتين المستحيلتين الأساسيتين اللتين أتيحتا لپيسوا .

تمتلك قصيدة كامپوس الأولى نشيد الظفر أصالة خادعة . فهى في الظاهر صدى لامع لويتمان وللمستقبليين . هى نشيد لا يمكن أن يُقارَن إلاَّ بتلك القصائد التى كانت تكتب فى نفس تلك السنوات ، فى فرنسا وروسيا وأقطار أخرى [6] ، لكن الفارق ملموس . فويتمان آمن فعليّاً بالإنسان وبالآلات ، أو بعبارة أفضل : آمن بأن الإنسان الطبيعى لم يكن مُعادياً للآلات . عقيدة وحدة الوجود لديه تستوعب حتى الصناعة . والقسم الأكبر منْ أخلافه لا يَسيرُ فى نفس اتجاه تخيلاته ، بعضهم يرى فى الآلات لُعبا مدهشة . إننى أُفكر فى ڤاليرى لاربو [7] وفى Su Barnabooth الذى له أكثر من شبه مع ألبارودى كامپوس . إنَّ موقف لاربو تُجاه الآلة هو موقف أبيقورى . موقف المستقبليين منها موقف رؤيوى ، فهم ينظرون إليها كما لو كانت الدركى المدمِّر للإنسانوية الزائفة و « للإنسان الطبيعى » تبعاً لذلك . لا يقترحون أنسنة الآلة ، بل بناء نوع إنسانى جديد مشاكل لها . الاستثناء هو ماياكوفسكى . لا ، ولا حتى مايكوفسكى . أما « نشيد الظفر » فليست قصيدة أبيقورية ولا رومانطيقية ولا ظفرية : إنها نشيد غضب واندحار ، وفى هذا تكمن أصالتها .

المصنع هنا عبارة عن « منظر استوائى » مأهول بحيوانات عملاقة وشهوانية ، بجِماع لانهائى للعجلات والرُّزُم والبكرات ، حيث الإيقاع الميكانيكى يتضاعف

وجنَّة الحديد والكهرباء تتحوَّل إلى قاعة تعذيب . الآلات هي أجهزة الجنس الهدَّامة : لَكَمْ أحبَّ كامپوس أن تطحنه تلك اللوالب الفوَّارة : هذه الرؤية الشاذّة هى ، فى الواقع ، أقلُّ فانطسطيكية مما تبدو وهى ليست مجرَّد وسواس خاص بكامپوس . الآلات هى التناسل والتبسيط وتكاثر الأنساق الحيوية . وهى تَفْتِنُنَا وتبعث فينا القشعريرة ؛ لأنها تمنحنا الانطباع الآني للذكاء واللاشعور : كُلَّ مَا تَفْعَلُه تفعَلُه بإتقان ، لكنها لا تعرف ماذا تفعل . أليست هذه سمةً من سمات الإنسان الحديث ؟ غير أنَّ الآلات هى فقط أحَدُ وجهى الحضارة المعاصرة . الوجه الآخر هو الاختلاط الاجتماعى .

بالصراخ تنتهى « نشيد الظفر » ؛ إذ يفقد ألبارودى كامپوس ، وقد تحوَّل إلى حزمة ، طَرْد ، عجلة ، القدرةَ على استخدام الكلمات : فيلجأ إلى الصفير ، إلى الصَّرير ، يقرع الأجراس ، يدقُّ بعنف ويدوِّى ثم ينفجر . كلمة كاييرو تستدعى وحدة البشر والحجر والحشرات . أمَّا كلمة كامپوس فتستحضر الصخب المتقطع للتاريخ . ألوهية الكون وألوهية الآلة ، إذن ، شكلان لإلغاء الوعى .

قصيدة طبكيرية هى قصيدة الوعى المستعاد . إذا كان كاييرو يتساءل : ماذا أكون ؟ فإنَّ كامپوس

يتساءل : من أكون ؟ من غرفته يتأمَّلُ الشارع : السيارات ، المارّة الكلاب . الكل حقيقي والكُلُّ وهمى . الكل قريب والكل بعيد . فى المقابل يظهر صاحب الطبكيرية ويختفي واثقاً من نفسه مثل إلاه ، معمّى مبتسماً مثله .. وهو يفرك يديه كأنّه الأب الربُّ وقد فرغ لتوه من عملية الخلق المريعة . يصل إستيبا إلى مغارته – معبده – كوخه ، إستيبا اللامبالى الذى بلا ميتافيزيقا يتكلم ويأكل . له عواطفه وآراؤه السياسية وهو يحرس أيام العطل الجديرة بأن تُحرس . ومن نافذته ، من وعيه يتابع كامپوس المهرِّجَيْن فيري من خلالهما ذاته . أين تُوجَد الحقيقة ؟ فى ذاتى أم فى إستيبا ؟ يبتسم صاحب الطبكيرية ولا يجيب . إنَّ كامپوس الشاعر المستقبلى يبدأ بالتأكيد على أنَّ الإحساس هو الواقع الحقيقى الأوحد ؛ بَعْد سنوات سوف يتساءَل عَمَّا إذا كان هو نفسه ذا وجود واقعى بالفعل .

بإلغاء كاييرو لوعيه بذاته ، يلغى التاريخ ؛ أمَّا الآن فالتاريخ هو الذى يُقصى كامپوس . حياة هامشية تماماً : فإخوته ، إن كان له إخوة ، هم المشردون ، والمومسات والمتكيِّس ، والشحاذ ، وأوباش العلْية والأسافل . ليس لتمرُّده أيَّةُ صلَة بأفكار الخلاص أو العدل : « كلا ، كل شيء مقبول ماعدا أن نكون على حق !كل شيء ماعَدَا أن تقلقنى بشئون الإنسانية !كل شيء ماعدا الانقياد

للإنسانوية !» كامپوس يتمرَّد كذلك على فكرة التمرُّد ذاتها . فهو ليس نتاج فضيلة أخلاقية ، أوَ وَضْع مُعيَّن للوعى ، إنَّه الوعى الصادر عن إحساس خاص : « ريكاردو رييس وثنيٌّ عن إيمان ؛ أنطونيو مورا عن ذكاء ؛ أنا وثنى عن تمرُّد وهذا عن جبلَّة » . عطفه على البؤساء مصطبغ ببعض الازدراء ، ازدراء يجسه تجاه نفسه قبل كل شئ :

أشعر بعطف نحو جميع أولائك الناس

خاصة عندما لا يستحقون أيَّ عطف

أجل ، أنا أيضاً صعلوك وشحاذ .

أن تكون صعلوكاً وشحاذاً لا يعنى أنك صعلوك شحاذ .

يعنى أنك موجود خارج التراتب الاجتماعى ...

يعنى ألاَّ تكون قاضى القضاة ولا الموظف المسمَّر فى وظيفته ،

ولا المومس ، أو العديم المهابة ، العامل المستغل ، المريض

بداء عضال ، أو المتعطش للعدالة ، أو قبطان الفروسية ،

يعنى ألاَّ تكون ، فى النهاية ، واحداً من تلك

الشخصيات الجتماعية لدى الروائيين الذين أتخموا حروفاً ؛ لأنَّ لهم موضوعًا يستثير دموعهم .

والذين يتمردون على الحياة الاجتماعية ؛ لأنهم يظنُّون أن لهم أسباباً للتمرد »

إنَّ تصعلُكَه وكُدْيتَه لا تَقع تبعتهما على أىَّ ظرف من الظروف ؛ إذ لافكاك منهما ولا علاج لهما . أن أكون صعلوكاً هكذا هو : « أن أكون وحيداً مع رُوحى » وفيما بعد ، وبتلك الفظاظة الفضائحية التى ميَّزت پيسوا : « لا أتوفَّر حتى على تعلَّة هى ملكة اكتساب آراء اجتماعية ... أنا واع . لا مجال للإستطيقا مع حكايات القلب هذا . أنا واع . خراء . واع أنا » .

إن الوعى بالمنفى هو علامة ثابتة للقصيدة الحديثة منذ قرن ونصف . لقد جعل جيراردو نرڤال من نفسه أميرا لأكيتانيا ؛ أما ألبارودى كامپوس فقد اختار لنفسه قناع المتصعلك . الانتقال هنا كاشف . تروبادور هو أم شحاذ ؟ ماذا يخفى هذا القناع ؟ لا شئ ربما . ما الشاعر إلاَّ وعيه بذاته ، وعيه بلا واقعيته التاريخية . ولا يَغْرَقُ المجتمع فى لاشفافيته الخاصة إلاَّ عندما ينسحب ذلك الوعى من التاريخ .ويعود إستيبا أو صاحب الطبكيرية إلى موقعه . لن نعدم من سيقول : موقف كامپوس ليس « إيجابيا » . كسايس مونتيرو قدَّم جواباً مفحماً بخصوص مثل هذه الآراء النقدية : « أعمال پيسوا هى

فى الواقع أعمال سلبية لاتصلح كنموذج أو قدوة لا تعلَّمنا أن نكون حاكمين ولا أن نكون محكومين . بل هى تصلح للنقيض تماما : لإفساد النفوس » .

كامپوس لا ينطلق ، مثل كاييرو ، ليكون كل شئ ، بل ليكون الجميع ويُوجَدَ فى جميع الجهات . إنَّ ثَمَنَ السقوط فى التعدُّد يُؤدِّى بفقدان الهُويَّة . ريكاردو رييس [8] يختار الإمكانية المضمرة فى قصيدة أستاذه . إذا كان كامپوس صعلوكاً فإن رييس ناسك . ونسكه فلسفة وشكل . فلسفته خليط من الرواقية والأبيقورية . أما الشكل فهو الهجاء والنشيد والرثاء على غرار الشعراء النيوكلاسيكيين . ، وتظهر النيوكلاسيكية فقط من حيث هى نوع من النوسطالجيا ، أى من حيث هى رومانطيقية مجهولة أو متنكَّرة .

بينما كان كامپوس يكتب مونولوجاته المطوَّلة الأقرب ، كُلَّ مرة ، إلى التأمُّل الباطنى منها إلى النشيد ، كان صديقه رييس يحكُّ أناشيد قَصيرة حول اللذة ، هروب الزمن ، ورود ليديا ، حرية الإنسان الخادعة ، بُطلان الآلهة . لقد تلقَّى تعليمه فى معهد (الجزويت) اليسوعيين ، واحترف مهنة الطب . فَلكيُّ النزعة . نُفى إلى البرازيل منذ 1919 . وثنى متشكِّك عن عقيدة . لاَ تينويٌّ عن تَعلُّم . خارج الزمن يعيش رييس . يبدو ، وهو ليس كذلك ، إنساناً من الماضى : لقد اختار أنْ يحيا فى حكمة لا زمنية . منذ زمن قريب أشار سيورن إلى

أنَّ قرننا هذا الذى اخترع الكثير من الأشياء ، لم يتوصل إلى ابتكار ما نحن بأمَسِّ الحاجة إليه . وليس من الغرابة فى شيئ أن يلجأ البعض إلى البحث عن هذا الذى ينقصنا فى التقليد الشرقى : فى الطاوية ، بوذية الزن ، الواقع أنَّ رواقية ريبس هى صيغة تخلٍّ عن الوجود فى العالم من دون تخلٍّ عن الوجود فيه . وإنَّ لأفكاره السياسية معنى مشابهاً : فهى ليست مشروعاً أو برنامجاً ، بل نفياً لوضع معين لأشياء معاصرة . هو لا يكره المسيح ولا يحبه ؛ يبغض المسيحية وإن كان يُقرُّ فى النهاية عندما يفكر فى يسوع بكون « أسلوبه المظلم المؤلم قد حَمَل إلينا ما كان ينقصنا » . إنَّ القدر هو الإلاه الحقيقى عند ريبس ، والجميع بشراً وأساطير خاضعون لجبروته .

الشكل لدى ريبس عجيب رتيب ، مثل كل شئ مصنوع بإتقان . إنَّ تلك القصائد القصيرة تُشعر بوجود مزيج خبير ومقطَّر من النيوكلاسيكية البرتغالية ومن الأنطولوجية الإغريقية المترجمة إلى الإنجليزية . ومسألة تقويم لُغته أقلقت پيسوا غير ما مرَّة ، يقول : « يكتب كاييرو البرتغالية سيئا . كامپوس يفعل ذلك بطريقة معقولة ، رغم ارتكابه لهنات مثل «yopropio » بدل « yo mismo » ؛ ريبس أفضل منِّى مع نقاوة أعتبرها مفرطة » . إن المبالغة المُسَرْنَمة لكامپوس تتحوَّل بفعل حركة طبيعية جداً من

التعارضات إلى دقَّة ريبس المبالغ فيها .

لا الفلسفة ولا الشكل بقادرين على تبرير وجود ريبس . إلاَّ إذا كَانا يُريدان تبرير الشبح وحده . لأنَّ الحقيقة هي أنَّ ريبس لا وجود له وهو يعلم ذلك . بإشراق أكثر مضاءً من ذلك الذي عبَّر عنه كامپوس نجد ريبس يتأمل :

لا أدرى ممَّن جاءنى تذكُّر ماضىً .

آخَرَ كنتُ ، لا أكاد أتعرّف على ذاتى .

عندما أستشعر مع روحى تلك الروح الغريبة .

التى أتذكرها ساعتئذٍ .

من يوم لآخر ، سوف نهجر أنفسنا

لا شئ مؤكداً يربطنا بذواتنا

نحن هم من نحن الآن

ماكُنّاهُ هو ما يرى من الداخل .

المتاهة التى يضيع فيها ريبس هى ذاته بعينها . والنظر الداخلية للشاعر ، وهى شئ مختلف تماماً عن التأمل الباطنى ، تقرِّبه من پيسوا . وهما وإن كانا يستعملان أوزاناً وأشكالاً ثابتة فليست التقليدية هى ما يجمعهما لأنهما ينتميان إلى تقليدين مختلفين . ما يُوحِّدهما هو الإحساس بالزمن ، لا كشيء يَمُرُّ أمامنا ،

وإنَّمَا كشئ يَغْدُو نَحْنُ هُوَ .

كايـيرو وكامپوس أسيرا الزمن الآنى يؤكدان الكينونة أو غياب الكينونة عبر الجرح نفسه .. رييس وپيسوا فى المَسالك الوعرة لفكريهما يضيعان . وفى أحد المنعرجات يدرك أحدهما الآخر . وبذوبانهما فى ذاتيهما معاً يغرقان فى معانقة الظل . إنَّ القصيدة ليست تعبيراً عن الكائن ، بل هى إحياء لذكْرى لحظة ذلك الذوبان ، ذلك الأثر الخواء . پيسوا سَيُشيِّد معبداً للمجهول . رييس القنوع يكتب هجاء هو بمثابة كتابة قبرية :

يمكن للقدر أن يمنع عنِّى كل شئ
سوى أن أراه : رواقى بدون خشونة
سأتلذذ ، حرفاً حرفاً ، بالحكم
الذى أصدره القدر .

يستشهد ألبارودى كامپوس بجملة لريكاردو رييس : أكره الكذب لأنَّه عديم « الدقة » وهى جملة يمكن أن نطبِّقها على پيسوا شريطة عدم خلط الكذب بالتخيل و« الدقة » بالصرامة : قصيدة پيسوا فائقة الدقة مثل رسم خطى . مثل الموسيقى دقيقة ومركَّبة . إنَّه شاعر مركَّب ومتعدِّد يتحرك فى اتجاهات مختلفة : النثر ، الشعر بالبرتغالية ، والشعر بالإنجليزية (ينبغى أن

ننسى قصائده المكتوبة فى الفرنسية) أعماله النثرية التى لم تُنْشَر كاملةً بعد . يمكن بعد تصنيفها إلى صنفين كبيرين : ما وقَّعه باسمه ، وما كتبه بأسماء مستعارة نذكر منها أساساً : بارون الـ Teive الأرستقراطى ، وبرنارد سواريس متعاطى التجارة ... وفى فقرات متعدِّدة يشدِّد پيسوا على أنهما ليسا من الأنداد .. « كلاهما يكتب بأسلوب هو أسلوبى ، جيِّداً كان أم رديئاً ... » الوقوف عند القصائد الإنجليزية ليس ضرورياً : لأنها – حسبما يبدو لى – ذات صلة قويّة بالشعر الإنجليزي ، بدون التقليل من أهميتها الأدبية والسيكولوجية .

أما الأعمال الشعرية بالبرتغالية منذ 1902 حتى 1935 فتضم « رسالة » القصيدة الغنائية ، وكذا القصائد الدرامية وهى ذات قيمة هامشية حسب رأيى ، إذ حتَّى لَوْ أقصيناها فسيبقى عمل شعرى متنوع وشاسع فى متناولنا . لكنْ هناك فارق أولى : جميع « الأنداد » يكتبون فى نفس الاتجاه وفى نفس التيار الزمنى . أما پيسوا فيتفرَّع كالدَّلتا وكل ذراع من ذراعيه تقدِّم لنا صورة أو صُوراً للحظة واحدة .

فى « رسالة » تتفرَّعُ القصيدة الغنائية ، وفى ديوان الأغانى (مع تلك القصائد المتفرِّقة وغير المنشورة) والقصائد الهرمسية . إنَّ الترتيب ، كما يحدث دوماً ، غير مطابق للواقع « فديوان الأغانى »

كـتـاب رمـزي مشـبع بالهرمسـيَّة وإن كان الشـاعر لا يسـتـخدم التـقليد الباطني من الناحية التعبيرية . و « رسـالة » هي فوق كل شيء كتـاب في علم أشـعـرة الأشـراف héraldica الـ héraldica تمثل قـسـمـاً من السـيمياء ... وتبقى القصـائد الهرمسـية في شكلها وروحها قصائد رمزية : وإدراك محتواها لا يتطلب أن يكون المرء مُعلِّما من الأقطاب ... إنها تتطلَّب كسائر آثاره أصعب وأرفع درجات التفهم الروحي .

أن نكون على بيِّنة من اهتمـام رامبو بالقبالة وبمطابقته بين القصيدة والسيمياء هو شيء مفيد ولا شك ، لأنه يقرِّبنا من عمله الذي يتطلب منا إلى جانب ذلك وبُغية التغلغل في عالمه ، شيئاً أكثر وشيئاً أقل : لقد حَدَّد پيسوا ذلك المطلوب على هذا النحو : خِفَّةُ روح ، حدس ، فهم ، ذكاء ؛ ثم ماهو أصعب : تساهل ... لربما يبدو هذا التَّعداد مغاليا بعض الشيء . غير أنِّي لا أدري كيف يمكن أن نقرأ بدون هذه الشروط الخمسة حَقّاً بودلير وكولردج وييتس . وفي جميع الأحوال فإن الصعوبات القائمة في قصيدة پيسوا هي أقلُّ ممَّا نُصادف في شعر هولدرلين ونرفال وملارمي من صعوبات ... القصيدة لدى الشعراء الحداثيين هي نظام من الرموز والتناظرات مشابه لنظيره في العلوم الهرمسية ، مشابه لا مطابق . القصيدة كوكبة علامات هي سيِّدة سطوعها الخاص .

لقد تصوَّر پيسوا رسالة بمثابة طقس أو شعيرة ، أى باعتبارها كتاباً سرِّيًا ... وبالنظر إلى جانب الإتقان الخارجى يمكن أن نَعُدَّها عمله الأكثر اكتمالاً بيد أنَّها كتاب مصنوع صنعاً ، لا أقصد القول بعدم شفافيته ، بل الإشارة إلى أنَّه ليس وَليدَ حُدوس الشاعر بل ، وليد التأملات وإعمال الفكر ... يبدو الكتاب للوهلة الأولى نشيداً يسبِّح بأمجاد البرتغال متنبئاً بإمبراطورية جديدة (الخامسة) سوف تكون روحيَّةً هذه المرة لاَمَاديَّةً كما فى السابق ، وسوف تمتد هيمنتها إلى ما هو أبعد منَ المكان والزمن التاريخى (سيذكر القارئ المكسيكى « الجنس الكونى » لـ ڤاسكونساليس) . إن الكتاب عبارة عن معرض لشخصيات تاريخية وأسطورية منقولة من واقعها ومحوَّلة إلى مجازات تنتمى إلى واقع آخر . ومن غير أن يكون واعياً تماماً بما يفعل يُجرِّد پيسوا تاريخ البرتغالى الفعلى ، ويُحلُّ محلَّه تاريخا آخر روحياً خالصاً ينفيه . ولعل الطبيعة السرية لـ رسالة تمنعنا من قراءتها كمجرد قصيدة وطنية ، كما يُريد بعض النقاد الرسميين . لَكن علينا أن نضيف أنَّ رمزيَّته لا تنقذه من وضوح مراميه . فلكى تكون الرموز رموزاً بحق لابدَّ أن تتخلَّى عن رمزيتها وأن تصير مخلوقات حية حساسة لا مومياوات فى متحف .

فى « رسالة » كما فى كافة الأعمال التى يتدخَّل فيها

الجهد الإرادى أكثر ممَّا يتدخَّل الإلهام لا نجد إلاَّ قصائد قليلة ترقى إلى تلك الدرجة من العذوبة المميِّزة للشعر المنتمى للأدب الجميل . لكن القصائد القليلة تلك إنَّما تحيا فى نفس الفضاء السِّحرى الذى تحيا فيه أفضل قصائد « ديوان الأغانى » إلى جانب بعض السوناتات الهرمسية .ما الذى يحويه هذا الفضاء ؟ يستحيل معرفة محتواه الفضاء هو فضاء القصيدة الخالصة ، هو منطقة حقيقية مَلْمُوسة . مضاءة بضوء آخر . لا يهم أن تكون تلك القصائد قليلة . لقد قال جوتفريد بن : لا أحد ، ولا حتَّى أكبر شعراء عصرنا خَلَّفوا أكثر من ثمان أو عشر قصائد فى غاية الاكتمال . من أجل ستٍّ قصائد ، ثلاثون أو أربعون سنة من التنسُّك ، من المعاناة ومن الكفاح .

ديوان الأغانى هو عالم مكوَّن منْ قليل من الكائنات وكثير من الظلال . لكن تنقصه الشمس المركزية ، تنقصه المرأة . فِى غيابها يضمحّلُّ العالم المحسوس ، لا أرض ولا ماء ، ولا إمكانية لتجسُّد اللامحسوس . تنقصه الملذات المرعبة والمحرَّمة . ينقصه الحب الذى هو الرغبة فى كائن أوْحَدَ أيّاً كان . هنالك شعور مبهم بالأخوة تجاه الطبيعة : أشجاراً ، غيوماً ، حجراً . تجاه كل ما ينفلت وكل ما هو معلَّق فى فراغ الزمن . إنَّ لا واقعية الأشياء هى انعكاس للاواقعيتنا نحن . ثمت إنكار وضجر وغمّ .

في كتاب القلق الذى لا نعرف عنه سوى بعض المقاطع [9] يصف پيسوا وضعه الأخلاقى قائلاً : أنتمى إلى جيل ترعرع مجرَّداً من الإيمان بالمسيحية . ثم افتقد هذا الإيمان فى كل المعتقدات الأخرى ؛ لم نَكُنْ متحمسين للمساواة الاجتماعية أو للجمال أو التقدم ؛ وَلاَ كُنَّا نبحث عن طرائق دينية أخرى فى المشرق أو المغرب (« مامن حضارة إلاَّ وهى منتسبة إلى الدين الذى يمثلها : بفقداننا دينَنا فقدنا أنفسنا جميعا ») . بعضنا تفرَّغ لغَزْو اليومى . بعضنا الآخر من طينة أفضل : انسحب أو بالأحرى انسحبنا من الانشغال بالقَضايا العامة بدون أن نتعلَّق بشئ أو نرغب فى شئ . آخرون منَّا استسلموا لعبادة الصخب والإلبهام : يحسبون أنهم يَحْيَون إذ ينصت بعضهم إلى بعض ، ويَحْسَبونَه حَبّاً احتكاكُهُمْ بقشور الحب ... أما بعضنا الآخر ممن ينتمى إلى السلالة الأخيرة ، سلالة نهاية الحضارة أو الحد الروحى الأقصى لساعتنا الميِّتة فقد اخترنا العيش فى نفى دائم بَرِم مغموم » . هذه الصورة ليست صورة پيسوا بيد أنَّ القعر الذى يبرز فيه وجهه متداخَلا أحياناً عديدة معه . الحد الروحى للساعة الميِّتة . أجل : إنَّ الشاعر إنسان خَاوٍ يلجأ ، وقد تخلَّت عنه العناية ، إلى خلق عالم خاص به كى يكتشف هويَته الحقيقية ... كل عمل من أعمال پيسوا هو سعى محموم وراء الهوية المفقودة . يقول فى إحدى قصائده المستحضرة بكثرة :

« مُرَاء هو الشاعر يبلغ من الُمراءاة حَداً يجعله يَدَّعى بأنه ألَم فظيع هو ذلك الألم الذى يُحسُّه بالفعل » . وهو « إذ يقول الحقيقة يكذب . وإذ يكذب يَقُول الحقيقة » . لسنا أمام اسطيطيقا معينة ، بل نحن ببساطة أمام فعل إيمان . القصيدة هى بمثابة كشف عن لاواقعية هذا الفعل :

بين ضوء القمر وأوراق الشجر

بين الهدوء ومَمَّر الأشجار

بين الليل المخيِّم والنسيم العليل

يمرُّ سِرٌّ

فتتبعَه روُحى مقتفية أثره .

أهو پيسوا ذاك الذى يمرُّ أم شخص آخر ؟ سؤال يتكرّر طوال توالى القصائد والأعوام . وهو لا يدرى إن كان ما يكتبه ينتسب إليه حقا ، أو بالأحرى يدرى إن كان هو بالفعل فإنه ليس أبداً هو . « لماذا أحكُم مخادعاً بأنَّ ما هو لى إنَّما هو لى ؟ » إن البحث عن الأنا – مفقوداً وموجوداً ومفقوداً مرة أخرى – ينتهى إلى الاشمئزاز :

« إنه الغثيان ، اللاشئ : أن نُوجد لأجل ألاَّ نموت » .

من خلال هذا المنظور فقط نستطيع إدراك المدلول القبالى « للأنداد » . فهم ابتكار أدبى وضرورة

سيكولوجية معاً . غير أنهم أكثر من ذلك . إنهم بصيغة من الصيغ أولائك الذين كان باستطاعة پيسوا أن يكونهم أو من كان يريد أن يكونهم ؛ ولنقل بتعبير أعمق : إنهم بالذات مالم يكن يرغب فى أن يكون : مجرد شخصية من الشخصيات ... فى الحركة الأولى يصنعون قطيعة مع المثالية ومع المعتقدات الفكرية لصانعهم . وفى الحركة الثانية يظهرون أن الحكمة الفطرية والساحة العمومية والزهد الفلسفي ماهى إلاَّ محضُ أوهام . إنَّ الآتى مثلُ المستقبلى غير صالح للإقامة ؛ والرواقية دواء قاتل . ومع ذلك فإنَّ تدمير الأنا الذى ما هو إلاَّ « الأنداد » أنفسهم يُثمر خصوبة سرية . الصحراء الحقيقية هى الأنا ليس فحسب لكونها تسجننا داخل ذواتنا حاكمة علينا بأن نحيا مع مجرد شبح ، بل لأنها تُذْبِل كُلَّ ما تمسُّه . إن تجربة پيسوا تندرج ، ربما حتى من غير أن يكون هو قد طرح ذلك ، ضمن التقليد الذى خطه شعراء الحداثة الكبار منذ نرفال والرومانطيقيين الألمان . الأنا يعوق . الأنا هو العائق . لذلك فإنَّ كل رأى يقتصر على الجانب الإسطيطيقى لأعماله هو رأى قاصر قطعاً . وإذا كان صحيحاً أنَّ جميع ما كتبه ليس على مستوى واحد من الإجادة ، فإنَّ جُلَّ ما كتبه إنْ لم نَقُلْ كله موسوم بآثار بحثه ومسعاه المضنى . أعماله هى خطوة نحو المجهول ، وشغف بتملكه .

لا ينتسب پيسوا لا إلى هذا العالم ولا إلى العالم الآخر .. وحدها كلمة « غياب » فى مقدورها أن تعرِّفه ، إذ فهمناها على أنها تعنى حالة سيولة حيث الحضور يتلاشى وحيث الغياب يكون إيذاناً بماذا ؟ بلحظة لم يَعُدْ للحاضر فيها وجود ولمَّا يكَدْ يبزغ ذلك الذى ربما سيكون .. إن الصحراء المتمدِّنة تتغطَّى بالعلامات : الحجر ينطق .. الريح تتكلم .. والأشياء كل الأشياء تقول لا هذا الذى أقول بل شيئاً آخر . دائماً شئ آخر نفس الشئ الذى لا يقال أبداً . إنَّ الغياب ليس حرماناً فحسب ، بل هاجس حضور لا يظهر مكتملا ألبتة . ثمت قصائد هرمسية وأناشيد تتفق مصادفة : فى الغياب ، فى اللاواقع الذى نحن فيه . ثمت حضور شئ ما .

وسط الناس والأشياء الغفيرة منذهلاً يسير الشاعر عبر شارع فى الحى القديم . يدخل إحدى الحدائق . تتحرَّك الأوراق كأنَّها على وشك أن تقول ... لا ... لا لَمْ تقل شيئا ... تلك هى لا واقعيَّةُ العالم فى الشُّعاع الأخير للمساء . كل شئ ساكن ... كل شئ فى حالة انتظار ... يعرف الشاعر أخيراً أنه بلا هويّة ، وأنَّه شبيه بتلك الأشياء . المُذْهَبة تقريباً ، الواقعية تقريباً . شبيه بتلك الأشجار المعلَّقة فى الزمن اللحظى ... يغادر هو الآخر ذاته ... من غير أن يظهر الآخر ، الآخر الصِّنو، پيسوا الحقيقى لن يظهر أبداً للعيان : لا يوجد آخر . ما

يتراءَى ، مُلمِّحاً ، هو شيء آخر ... هو ما لا اسم له ، وما ليس يقال ، وما تتمسَّك به كلماتنا الفقيرة . هل هو القصيدة ؟ كلا : القصيدة هي ما يتبقى ، ما يمنحنا العزاءَ . الوعي بالغياب . ومِن جديد ثمَّت صوت ، حفيفُ شيء مّا : پيسوا أو انبثاق المجهول .

باريس 1961

ثلاث قصائد

لألبارو دي كامپو

نشيد بحرى

وحدى ، فى هذه الصبيحة الصيفية ، على الرصيف الخالى أنظر إلى عارضة النهر ، إلى اللامحدَّد .

أنظر وأنا مبتهج بمرأى سفينة محيطات ، صغيرةً ، سوداء ، واضحة تدخل الميناء .

بعيدة ما تزال ، جليّة ، كلاسيكية على شاكلتها ، تاركة وراءها فى الهواء القصىّ ذيلها الدخانى المبهم .

هى ذى تدخل الآن ، فيدخل بمعيَّتها الصباح ، وفى المرفاء النهرى تستيقظ الحياة البحرية ، هنا وهناك ،

أشرعة تُرفع ، جرَّارات تتقدَّم،

مراكب صغيرة تنبثق من وراء السفن الراسية فى الميناء .

ثمت نسيم غامض .

بيد أن نفسى مع مالا يُرى إلاَّ من بعيد ،

نفسى مع سفينة المحيط وهى تدخل الميناء ،

لأنها تنتمى إلى المدى ، إلى الصباح ،

إلى الوجهة البحرية لهذه اللحظة ،

لأنها مع العذوبة المؤلمة المتصاعدة كالغثيان

فى داخلى ، كبداية دوخة ، لكنْ دوخة فى الروح .

أنظر إلى سفينة المحيط آتية من بعيد وأنا مفعم

بتحرر هائل فى الروح ، وهناك بداخلى

محركٌ يشرع ببطء فى الدوران .

سفن المحيطات اللائى يدخلن عارضة الميناء فى الصباح

يَجلْبْن معهنّ كل شئ حتى عينىّ ذاتَيْهما .

يجلبن الأسرار الحزينة والمفرحة لمن يصل ومن يرحل .

يَجلُبنَ ذاكرات أرصفة بعيدة ، وذاكرات لحظات أخرى ،

لأنماط أخرى من نفس الحياة الإنسانية فى مناطق مختلفة .

كُلُّ رُسُوٍّ وكلُّ إقلاع

– أحسُّ به إحساسى بدمى نفسه – .

محمَّلٌ لا شعوريا برَمْزيّة طاغية ، وهو يتوعَّدنى

بدلالات ميتافيزيقية تُخلخِلُ فِيَّ من كنتُه من قبل ...

آه ، الرصيف كلُّه لوعةٌ من حجر !

عندما تغادر السفينة الرصيف

فنحسُّ ، فجأة ، أنَّ مسافةً متزايدة قد انفتحتْ

بين الرصيف والسفينة ،

ينتابنى ، بدون أن أعرف لماذا ، قلق طارئ ،

ضباب من مشاعر الحزن

يلمع تحت شمس هواجسى المتجدِّدة

مثل النافذة الأولى التى يطرقها الصباح ،

ضبابٌ يَلُفُّنى كذكرى شخص آخر

كان جزءاً منِّى فى الخفاء .

آه ، من يدرى ، من يدرى

إنْ لم أكنْ رحلتُ ، فى الزمن القديم ، قبلِ مجيئى ،

من أحد الأرصفة . إنْ لم أكنْ خَلَّفتُ ، مركباً تحت الشمس

ثملاً بالشروق ؟

صنفاً آخر منَ الموانئ ؟

مَنْ يَدْرى إن لم أكن خَلَّفتُ ، قبل أن تشرق من أجلى

ساعة العالم الخارجى وفق رؤيتى ،

رصيفاً هائلاً مكتظاً بأناسٍ قلائل

فى مدينة نصف مستيقظة

مدينة تجارية ، هائلة ، مهدَّدة ،

إن كان ممكناً حدوث ذلك خارج المكان والزمان ؟

أجل ، من رصيف حقيقى ؛ رصيف مادى على نحو ما ،

واقعى ، مرئى كرصيف

ذلك الرصيف المطلق المُحاكى فى اللاشعور ،

والذى نستوحيه بدون وعى نحن الرجال

حينما نشيِّدُ أرصفتنا على الموانئ ،

أرصفتنا من الأحجار الراهنة فوق المياه الحقيقية ،

أرصفتنا التى ما إنْ يكتمل بناؤها حتى تظهر فجأة

كما لو أنَّها أشياء – حقائق ، أشباح – أشياء ، أشياء – كيانات من حجر – روح ،

إزاء لحظات معينة من الإحساس – الجذرى

عندما فى العالم الخَارجى ، وكأن باباً ينفتح ،

يبدو كل شئ مختلفاً

بدون أن يتغيَّر شئ .

آه يا للرصيف الأكبر الذى منه أقلعنا فى السفن الدولية !

الرصيف الأكبر السابق ، الإلاهي والخالد .

مِنْ أيِّ ميناء ؟ وفى أية مياه ؟ ولماذا أفكر فى هذا كله ؟

الرصيف الأكبر كبقية الأرصفة ، الرصيف الفريد .

الملئ مثلها بالوشوشات الصامتة كل صباح

والمشرع مع الصباح لصخب الرافعات ،

ووصول قطارات البضائع

تحت السحابة السوداء العابرة والخفيفة

للدخان الصّاعد من مداخن المعامل القريبة

والذى يظلّل الأرض المسوّدة بالرماد الفحميّ اللامع

كما لو كان ظلاً لسحابة مّا لدى مرورها فوق المياه القائمة .

آه ، أيُّ سرّ جوهرى ، تُرى ، وأيُّ مَعْنى يخبّئُهما

الانخطاف الإلاهى الكشاف

فى ساعات السكينة والقلق

منْ كونِ لاَجسرَ هناك يفصل أيَّ رصيف عن الرصيف !

الرصيف المنعكس ، مُحْلَولَكاً ، على المياه الساكنة ،

ثمت دَوِىٌّ على ظهر السفن ،

أوه لروحِ الركاب الشاردة القلقة ،

روح الناس الرمزيين الذين يمرون ، مع أولائك الذين لا يمكثون لحظة واحدة ،

وإذن ، كلما عادت إلى الميناء سفينة

لابدّ من توقع حدوث جديدٍ على متنها !

أوه للهروب المتواصل ، الذهاب الذهابِ ، نشوةِ

المتنوِّع !

يا لروح البحّارين الخالدة ويالروح الإبحار !

قبّعات معكوسة ببُطءٍ على المياه

عندما تُقلع منَ الميناء السفينة !

أنْ نطفو كأنَّنا روح الحياة . أن نرحل مثل صوت

أن نعيش اللحظة ارتعاشاً ، فوق المياه الخالدة ،

أن نُفيقَ على نهارات أقْومَ من أيام أوروبا .

أن نشاهد موانئ سرية فوق عزلة البحر ،

أن نَطوِى أطرافاً نائية صوب مشاهد فسيحة غير متوقَّعة

لانحدارات مدهشة لا تحصى....

أوه يا للشواطئ القصية ، الأرصفة المرئية من بعيد

الشواطئ الدانية ، الأرصفة المرئية عن كثب !

سرُّ كل ذهاب وكل إياب ،

اللاثباتُ والاستغلاقُ المعذِّبان

لهذا الكون المتسحيل .

كل ساعة بحرية جديدة فى الجلْد نفسه تُحَسُّ

والنشيج العبثي الذى تَذْرِفه أرواحنا

على امتداد بحار مختلفة ذوات جزر نراها من بعيد ،

على الجزر البعيدة للشواطئ المتجاوزة عند المرور ،

على ذلك التنامي البيِّن للموانئ بمنازلها وسكانها

أمام السفينة التي تقترب .

أوه ، لطرواة الأصباح التي يتم الوصول فيها

وشحوبُ الأصباح التي يُرحل فيها ،

عندما تقلَّص أحشاؤنا

وينتابنا إحساس غامض يشبه الخوف

– الخوف السحيق المتوارث من الابتعاد والرحيل ،

الارتياب المتوارث والسريّ من الوصول ومن الجديد –

يُقطِّبُ جلْدنا ويُغثِّينَا،

وكُلُّ جسدنا الَجزِع يُحسُّ

كما لو كان هو روحَنا بالذات ،

برغبة لا تفسير لها في أنْ يستطيع الشعور بذلك على نحو مختلف :

أهُو حنين إلى شيء ما ،

أم ارتباك فى المشاعر ؟ نحو أيٍّ وطن مبهم ؟

نحو أيٍّ ساحل ؟ أية سفينة ؟ وأيٍّ رصيف ؟

ويمرض الفكر فينا

ولا يبقى فى داخلنا سوى فراغ هائل ،

امتلاء أجوف بلحظات البحر

ونَهَمٍ غامض كان سيكون حجراً أو ألَماً

لو عَرَف كيف يكونُه ...

الصباح الصيفى بارد قليلاً مع ذلك ، ثمت

سبات خفيف من ليلة الأمس ما يزال عالقاً بهبّات الهواء .

فى داخلى يَتَسارَعُ دوران المقود .

سفينة المحيط تدخل الآن ؛ لأنَّها داخلة ولا ريب .

ولو لم أرها تتحرك فى مَدَاها البعيد .

تبدو قريبة فى المخيلة ومرئية تماماً

بجميع الامتدادات الخطية لكُوَّاتها ،

كُلُّ ما فيَّ يرتعش ، كل اللحم وكل الجلد ،

لأجل ذلك الكائن الذى لن يصل أبداً فى أية سفينة

والذى جئت اليوم لانتظاره على الرصيف تلبية لتوكيل غامض .

السفن التى تَلجُ العارضة ،

السفن التى تغادرُ الموانئ ،

السفن التى تمرُّ من بعيد

(أفترض رؤيتَهنَّ من شاطئ مقفر)

– كل تلك السفن ، المجرَّدة تقريباً فى مُخُورها العباب ،

تهزُّنى كما لو كانت شيئاً آخر ،

لا مجرَّدَ سفن ، سفن تمضى وتجئ .

لأنَّ السفن المشاهَدَة عن قرب وَلَوْ لَمْ يكُنْ بقصد الإبحار فيهنَّ ،

المشاهدة من أسفل ، من التَّنَكات ، أعالى الأسوار الصفيحية ،

والمرئية من الداخل ، عبر القُمْرات ، الصالونات ، غرف الطعام ،

الصواري وهى ترفرف فى الأعالى ،

وقد جُرفت الحبال وأنزلت السلالم الُمتْعبة ،

واستُنشقَ كل ذلك المزيج الطلائى المعدَنى والبحرى

– تلك السفن ، مرئية عن قرب . هى نفس السفن

وهى شئ آخر ،

إنها تَهَبُ نفس الحنين ونفس الجزع بصيغة مختلفة .

يالَحياة البحر كلها ! كل شئ فى الحياة البحرية !

لقد تشرَّب دَمى كل ذلك الإغواء الرهيف

وأغرق فى تأمل جميع الأسفار بلا تحديد .

أوه . يا لَخطوط السواحل البعيدة المسقوفة بالأفق !

أوه . للأطراف ، الجزر ، الشطآن الرملية !

عزلات البحار كعزلة تلك اللحظات فى المحيط الهادى

التى تجعلنا نشعر ، فى أعصابنا ، لا أدرى بتأثير من أية

أوهام تلقيناها فى المدرسة .

بكون ذلك المحيط هو الأكبر بين المحيطات

وبالعالم كله وبطعم الأشياء وهى تتحوَّل

إلى صحراء قاحلة داخل أنفسنا !

يا لَشـسـاعـة المحـيط الأكـثـر إنسـانية والأكثـر تلوُّثاً !

والمحيط الهندى الأكثر غموضاً من كل المحيطات ،

والمتوسط ، العذب ، الخالي من أىٍّ غموض ، البحر الكلاسيكى

الجديد بأن يتكسَّر على سهول تتأملها من حدائق قريبة ، منحوتات بيضاء !

كلُّ البحار ، كلُّ المضائق ، كل الخلجان

أريدُ أن أضُمَّها إلى صدرى ، أنْ أحِسَّ بها جَيَّدا . ثم أموت .

وأنتنَّ يا أشياء البحر ، يا لُعَبى الحُلْميةَ العتيقة ،

شكِّلْن حياتى الباطنية خارج ذاتى !

أيتـهـا الرافـدات ، دفَّـات السـفن ، الصـوارى ، الأشرعة ،

عـجـلات القـيـادة ، الحـبـال ، المداخن ، المراوح ، البيارق ،

أشـرعـة الصـوارى ، الكُوَّات السفلية ، الغلاَّيات ، المصارف ، الصَّمامات

تَسَاقَطْنَ أكداساً فى داخلى ، ولتتكوَّمْنَ

مـثْـلَ المخــزون الغـامض لصندوق مُـقْـرع على الأرض !

وَلْتكُنَّ كَنْزَ شُحّي المحموم ،

كُنَّ أنتنَّ ثمارَ شجرة مخيِّلتى ،

مَوضُوعَ أغانيَّ ، الدَّم الساري فى شرايين ذكائى ،

ولَتكُنَّ الآصـرة التى تصلُني عبر الجمـال بما هو خارجى ،

زَوِّدنني بالاستعارات ، بالصور ، بالأدب .

لأنَّ مشاعرى ،فى الحقيقة ، وبكل جدِّيَّة وحَرْفية ،

مجرَّدُ مركب بدفَّة مُعلَّقة فى الهواء .

مخيِّلتى مَرساة مغمورة للنصف بالمياه ،

قَلَقى مجذاف مكسور ،

ونسيج أعصابى شبكة على الشاطئ تجفُّ !

فى صُـدفـة النهـر ثمَّت صـفـارة تَرنُّ ، صـفَّـارة وحيدة .

أرْضية دَخيلتى كلها ترتجف .

وسرعة المقَود تَتَزايَدُ فى داخلى أكثر فأكثر .

أوه . يا لَسُفن المحيطات ، الأسفار ، ألاَّ يُعرف مكانٌ

فُلانُ الفُلانى ، البحَّار ، المعروف لدينا !

أوه يالَمَجد أنْ نعرف أنَّ رجلاً كان معنا

قَد ماتَ غريقاً حذَاءَ إحدى جزر المحيط الهادى !

نحن الذين معه كُنَّا سوف نتحدَّثُ عن ذلك مع الجميع .

بالزهو المشروع ، بالثقة اللامرئية

بأنَّ لذلك كُلِّه معنى أجمل وأشْمَل

من مجرَّد فَقْد المركب الذى كان مُبحراً فيه

أو من كونه قَدْ مَضَى إلى الأعماق لأنَّ رِئتيه غَصَّتا بالمياه .

أوه ، سفن المحيطات ، البواخر الفحمية ، السفن الشراعية !

لقد صارت نادرة - يا ويحى - السفن الشراعية فى البحر .

لأنَّنى أنا الذى أعشق الحضارة الحديثة ، الذى

أقبِّلُ الآلات برُوحى ،

أنا المهندس ، أنَا المتحضِّر ، أنَا الذى تَربَّى فى الخارج ،

لا أريدُ أن أرى أمام عينيَّ سوى السفن الشراعية والمراكب الخشبية

ولا أرغب فى أن أعرف عن الحياة البحرية أكثر مما هو معروف

عن حياة البحار القديمة.

لأنَّ البحار القديمة هى المدى المطلق

هى البعد الخالص مُحرَّراً من ثقل الراهن ...

أوه ، لَكَمْ يُذكِّرنى كُلُّ شئ هنا بتلك الحياة المثلى ،

بتلك البحار السالفة لأنَّ الإبحار فيهنَّ كان أبطأ.

تلك البحار العامرة بالأسرار إذ ما كان يعرف عنها إلاَّ القليل.

كُلُّ بُخارٍ بعيد هو سفينةُ شراعٍ تَدْنو.

كُلُّ سفينة نراها الآن من بعيد هى سفينة قد شوهدت قريبة فى الماضى.

كل الملاَّحين اللاَّمرئيين على متن السفن فى الأفق

هم الملاحون المرئيون من زمن السفن القديمة

من العهد الشراعى البطئ للملاحات الخطرة ،

عَهْدِ الخَشَبِ والخيش والأسفار التى كانت تستمرُّ شهوراً .

شيئاً فشيئاً يغزونى هَذَيانُ الأشياء البحرية ،

الرصيف ومناخه يخترقاننى فيزيقياً ،

مكر نهر التاج يغمر حَوَاسِّى

فَأبْدأ فى الحلم ، أبدأ فى ارتياد حلم المياه ،

وتبدأ خيوط الاتِّصال فى إيصال الحركة إلى روحى .

بينما سرعة المحرِّك تخضُّنى بِجَلاء .

وتناديني المياه ،

تناديني البحار ،

تناديني الأقاصى بصوتها الجسدي

كل العصور البحرية المحسوسة فى الماضى تناديني

أنت أيُّها البحّار الإنجليزى ، جيم بارنس ، ياصديقى ، كنت أنت

من علَّمنى تلك الصيحة الإنجليزية الموغلة فى

القدَم ،

والتى تُلَخِّصُ ، بتسمُّم بالغ ،

للأرواح المعقَّدة مثل روحى

نَدَاءَ الحياة الغامض ،

الصوت غيَر المسبوق والضمني لأشياء البحر قاطبةً ،

صوت السفن الغريقة ، الأسفار السحيقة ، الرحلات الخطيرة .

صيحتك تلك . صيحتك الإنجليزية حَدَثٌ كونى فى دمي

من دون صياح ، ولا شكل إنساني ولا صوت ،

تلك الصيحة المروعة التى تبدو آتيةً

من داخل مغارةٍ قَبْوُها فى السماء ،

كأنما تحكي عن كل الأشياء الكارثية

التى يمكن أن تحدث فى البعيد ، فى ليل البحر ...

(دائماً تتظاهر بمناداة سفينة ما

قائلاً هكذا ، ويدكَ على مجموع فمك ،

ويداك المدبوغتان المسودتان مكبِّر صوت :

Ahó - óóóóóóóóóóó - yyyy...

Schooner ahó - ó - ó - ó - ó - ó - ó - ó - ó - ó - ó - yyy ...

إليك أصيخ السمع من هنا الساعةَ ، مستيقظاً لأجل شيء مّا .

ترتعش الريح ، والصباح يصعد رويداً رويداً ، والدفء يتفتَّحُ .

أشعر بتوَرُّدٍ في الخدَّين .

عيناي الصاحيتان تَتَّسعان

يتصاعد الانخطاف فيَّ ، ينمو ، يتقدَّم

وبضجيج تمرُّدٍ أعمى يشتدُّ

الدوران الحيُّ للمقود .

أوه ، أيُّها النداء المدوِّي

بفعل سعيرك واحتدامك في داخلي تغلي

كلُّ الأشواق في وحدة متفجرة ،

أحاسيس الضجر غَدَتْ كلها ديناميكية !

أيها النداء الموجَّهُ إلى دمي

مِنْ حُبٍّ غابر ، لا أدري أين ، يَعُود إليَّ

وهو مازال يمتلك القدرة على دفعي إلى كراهية هذه الحياة

التي أمضيها بين اللاشفافية النفسية والفيزيقية

للبشر الواقعيين الذين معهم أعيش .

أوه ، الرحيل الرحيل ، كائناً ما كان الحال ، وأيّاً كان الاتجاه ،

الرحيل ، الذهاب إلى الأمواج ، إلى الخطر ، إلى البحر ،

المضيُّ إلى عُرض البحر ، المضي إلى الخارج ، نحو المدى المجرد ،

بلا تحديد ، عبر ليال مُبْهمة عميقة ،

محمولاً كالعجاج مع الرياح ، مع العواصف !

الذهاب ، الذهاب ، الذهاب ، الذهاب مرّةً واحدة !

كُلُّ دَمي سُعار من أجل الأجنحة !

جسدي كله ينقذف نحو الأمام !

وأنا أقفز كالسيل طوال تخيُّلاتى !

أدوسُ ، أزمجر ، أتهاوى .

رغباتي تتفجَّر رغوةً

ولحمي يغدو موجةً تتكسَّر فى الوهاد الساحلية !

وإذ أفكِّر في ذلك – ياللغـيظ !– إذ أفكر فـي ذلك – ياَللغضب !–

وإذ أفكِّر في ضيق حياتي هذه المفعمة قلقاً

يجتاحني فجأة ، مرتجفاً ، متخطياً كُلَّ حَدٍّ ،

بذبذبة داعرة ، عنيفةٍ ، شاسعةٍ ،

لمقْود مخيِّلتي الحي ،

الشبقُ المظلمُ والسَّادي لحياة البحر الخارقة ،

مُصفِّراً مُدَوِّخاً .

إيه ، أيهـا البـحَّارة ، خَـفَـرةَ الصـوارى !إيه ، أيهـا النوتيون ، الربابنة !

المَلاَّحون ، القوادُ ، البحارة ، المغامرون !

إيه ، يا ربابنةَ السفن !رجالَ الدَّفَّة والصوارى !

الرجال النائمون على أَسرَّة خشنة !

وأنتم من تنامـون مع الخَطر مـراقـبين كل شئ من الكوى !

أيُّها الرجال النائمون مع الموت على وسادة واحدة !

الرجـال ذوو المظلات ، ذوو الجـسـور التي منهـا تشاهدون

الشساعة الشاسعة للبحر الشاسع !

أيها الرجال ، حَمَّالي رافعات الشحن !

إيه ، يامُنزلي الأشرعة ، وَقَّادي الآلات ، النوادل !

يا مَن تشحنون الأقبية بالبضائع الواردة !

مَنْ تجذبون الحبال على ظهر السفينة !

من تنظفون مَعْدن البُويْبات السفليّة !

رجال الدّفَّة ! رجال الماكينات ! رجال الصواري !

Eh-eh-eh-eh-eh-eh-eh !

رجال الخُوَذ المُقَوْنسة ! رجال القمصان المتَّخذة من الشَّباك !

أصحاب المخاطف والرايات المطرَّزة بالصليب على الصدور !

الموشومون ! أصحاب الغلايين !

يا من اسْودُّوا من فرط تَعرُّضهم للشمس ، واندبغت جلودهم من فرط الأمطار ،

أنقياء الأعين بفضل الشساعة المترامية المتاحة لأبصارهم ،

ذوى الأوجه الجريئة لكَثْرةِ مَا تَلَقُّوا من سياط الرياح ،

Eh-eh-eh-eh-eh-eh-eh !

أيُّها الرجال الذين شاهدتم باطاغونيا !

الرجال الذين مَرَرْتُم بأُستراليا !

يَا مَنْ مَلأتُمْ أبْصاركم بالنظر إلى سواحل لن أشاهدها أبداً !

وحَلَلْتُمْ أرْضاً بأراضٍ لَنْ أحُلّ بها البتَّة !

يا مَن اشتريتم أشياء بدائية فى مستعمرات جنب الغابات !

وكلُّ ذلك فعلتموهُ كمن لا يفعل أيَّ شيء ،

كما لو كان ذلك طبيعيا تماماً ،

كما لو كانت الحياة هى ذلك بالذات ،

كَمَا لَوْ لم تكونوا بصدد إنجاز أيَّة مَهمَّة على الإطلاق .

Eh-eh-eh-eh-eh-eh-eh !

رجالَ البحر الراهن ! رجال البحر الماضى !

يا كوميساريٍّ السفينة ! عبيدَ المراكب القديمة ! محاربى الليبانطو !

قراصنة عهد روما ! بحارة اليونان !

أيُّها الفنيقيون ! القرطاجنيون ! البرتغاليون

المنطلقون من ساغريس صوب المغامرة اللامحدَّدة ،
صوب البحر المطلق ، لتحقيق المستحيل !

Eh-eh-eh-eh-eh-eh-eh !

أيها الرجال ! يا من رفعتم نُصُباً تذكارية ، وأطلقتم على رؤوس البحار الأسماء !

الرجال الذين تاجرتم مع الزنوج للمرة الأولى !

مَنْ تاجرتُم فى البداية برَقيق العالم الجديد !

مَنْ منحتم الزنجيْات الذَاهلات أولى تشنجات اللَّذة الأوروبية !

أنتم مَنْ جَلَبْتُمْ الذهب ، الحلي الرخيصة ، الخشب المعطَّر ، السهام المتَّخذة منَ النبات الأخضر !

أيُّها الرجال الذين نهبتم بلداناً إفريقية آمنة ،

وجَعَلْتُمْ أولائك الناس يسمعون ضجيج المدافع ،

يامن قتلتم ، عَذَّبتُمْ ، سَرَقْتُم ، فُزْتُمْ بالجوائز على بدْعَة ذلك المحْنيٍّ الرأس [1]

الذى كان يُهَاجَم أسرار البحار الجديدة

Eh-eh-eh-eh-eh !

إليكم كُلُّكُمْ فى واحـد ، أنتم كُلكم فى الكُلِّ كـأنَّكُمُ الواحد ،

أنتم كُلُّكمْ ممزوجون ، متبادلون ،

إليكم جميعاً أيُّها السفاكون ، القساة ، المقوتون ، المرعبون ، المقدَّسون ،

إليكم جميعاً تحياتى ، تحياتى ، تحياتى !

Eh-eh-eh-eh-eh ! Eh-eh-eh-eh-eh !Eh-eh

Eh-eh-eh-eh-eh !

EL Lahó - Lahó - Lahó - Lahá - á- á- á- á- á!

أريدُالذهاب معكم ، أريد الذهاب معكم ،

معَكم كلكم فى نفس الوقت ،

إلى جميع الأماكن التى ذهبتم إليها !

أريد أن ألاَقي وجهاً لوجه مَا لاَقيتم من مخاطر ،

أنْ أحس فى وجـهـى بالرياح التى خَـدَّدَتْ وُجُوهكم ،

أنْ أبصقَ من شفَتيٍّ ملْحَ البحار التى لثمتها شفاهكم ،

أنْ أشاركَكُمْ أفعالكم ، أقَاسمَكُمْ ، عواصفكم ،

أنْ أصلَ مثلكم ، فى النهاية ، إلى موانئ رائعة ،

أريد الفرار معكم من الحضارة !

مَعَكُمْ أريدُ أن أفقد الحسَّ الأخلاقى !

أنْ أحسَّ بتغيُّر إنسانيتى هنالك فى عرض البحر !

أنْ أتشرَّب معكم ، فى بحار الجنوب ، همجيات جديدة ،

خَضَّاتٍ جديدة للروح ، نيراناً جديدة لروحى البركانية !

أريدُ المضيَّ معكُمْ والتجرُّد – أوه لتغرُبْ من هنا ! – من بدلة المتحضِّر ، من رخاوة أفعالى ،

مَنْ خَوفى الفطري من السجون ،

مَنْ حياتي المسالمة ،

مَن حياتى القعيدة ، الجامدة ، المضبوطة والرصينة !

إلى البحر ، إلى البحر ، إلى البحر ، إلى البحر ،

إيه ، إلى البحر اقْذفُوا بحياتى ، إلى الريح ، إلى الأمواج !

مَلِّحُوا بالزبَد الذىَ تَذْرُوهُ الرياح

ذَوْقي المتعطِّش للأسفار الكبرى !

اجْلِدوا بسوط المياه لُحوم مغامرتي ،

بَذِّلُوَا ببَرْد المحيطات عظَام كينونتي ،

اجْلدواَ ، اقطعـوا ، ادبَغـوَا بالرياح ، بالزَّبد ، بالشموس كينونتي الإعصارية والمحيطية ،

أعصابي المشدودة مثل الحبال ،

مثل قيثارة في يَد الريح !

أجَلْ ، أجَلْ ، أجل ... اصلبوني على مَتْنِ الإبحارات ،

وَلْيَلْتَذَّ بالصليب ظهري ،

أوْ ثِقُوني إلى الأسفار كما لَوْ إلى عمودٍ

يتوغَّلُ فِيَّ حتَّى عَمُودي الفقري

وسأحسُّ به مثل تشنُّج فَسيح وَلَيِّن !

افعلوا ما تشاؤون بي ، عَلى أن يتمَّ ذلك في البحار .

على جسور السفن ، مع هدير الأمواج

خَوْزِقُوني ، اقتلوني ، اطعنوني !

مَا أرغب فيه هو أنْ أحمل إلى الموت

روحاً طافحة بالبحر ،

سَكْرى حَتَّى التَّرنُّح بأشياء البحر ،

بالبَّحارين ، كما بالسواحل البعيدة ، كما بعويل الرياح بالمراسي والحبال

بعُرض البحر مثلما بالرصيف ، بالغرق فى السفن

كما بالإبحار التجاري الهادئ ،

بالصواري كما بالأمواج .

أن أحْملَ إلى الموت بألم وشهوانية ،

كأساً مترعة بأعلاقٍ تمتصُّ ، وتمتص ،

أعلاق غريبة خضراء بحرية تمتص !

اصنْعُوا حبالكم من عروقي !

اربطونى من عضلاتى !

اسْحَلُوا جلدى ، سمِّروني على الرافدات ،

وَلأكُنْ قَادراً أنَا على الإحساس بألَم المسامير ،

إحساساً لاَ أتخلَّى عنه أبداً !

منْ قلبي اصنْعُوا راية أميرال

كَسَاعَة الحرب على السفن العتيقة ،

لتَدْعَسُوا على جسور السَّفينة عينيَّ المَسْمُولَتين !

كسِّروا عظامى على واجهات السفن !

اجلدوني مُوثَقاً إلى الصوارى ، اجلدونى

اجعلوني عُرضة لرياح كل الجهات ، عرضاً وطولاً

اسفحوا دمى فوق المياه مندفعةً

تجرُّ مظلَّة السفينة من جهة إلى أخرى

نحو رَجَّة العواصف الهوجاء .

أريدُ أن أملك الإقدام إزاء الريح العاصفة بالأشرعة !

أن أكون ، مثلَ الصوارى العالية ، الصفير المخْول للرياح !

قيثارةَ القدر العتيقة قَدَر البحار التى تعجُّ بالأخطار ، أنْ أصيرَ أغنيةً كي يَسْمَعها البحارة من غير أن يُرَدِّدوها أبداً !

البحارة المتمردون مَنْ

شنَقُوا رُبَّانَهُم على إحدى العوارض.

وَأنْزَلوا غَيْرهُ على جزيرة خالية .

شمس المدارات هى التى دَسَّتْ حُمَّى القرصنة القديمة هذه فى شرايينى الحامية .

رياح پاطاغونيا وَشَمَتْ مُخيِّلتى

بمشاهد فاجرة مأسويّة .

النار ، النار ، النار بِداخلي

الدم ! الدم ! الدم ! الدم !

دماغى كُلُّه ينفجر !

العالم أجمع يتشظّى حمَماً حمراء

فى داخلى تتفجَّرُ ، وَحشية شَرِهةً

أغنية القرصان الأكبر ،

احتضارُ القرصان الأكبر الهَادرُ مغنيّاً ،

مَالئاً رجالَهُ رُعْباً حَتَّى كَوْثَلِ السفينة ،

مُحَتضَراً ، زاعقاً ، مُغنيّاً .

« خمسة عشر رجلاً فوق صدر الرجل الميت

يَاهُو – هُو مع قنِّينة من رُوم ! »

ثم صارخاً بصوت غريب يُدوِّى فى الهواء :

Darby M' Graw - aw - aw - aw - aw !

Darby M' Graw - aw - aw - aw - aw- aw !

Fetch - a - a - afthé ru - u-u-u-u-u-um, Darby !

ألاَ مَا أرْوَعَ تلك الحياة ! تلك كانت الحياة ... ألاَ

I Eh - eh- eh-eh-eh - eh- eh !

Eh - Lahó - Lahó - Lahó - Lagó -á-á-á-á-á !

Eh - eh- eh- eh-eh-eh- eh !

رافداتٌ مكسَّرة ، سُفُن مُغْرَقة ، دَمٌ في البحار !

جُسور سُفُن مُترعة بالدماء ، مِزَق أجساد !

أصابع مبتورةٌ فوق حبالِ السفَينة !

رُؤُوس أطفالٍ هنا وهنَاك !

أشـخاصٌ بأعـين مَسْـمُولة يصرُخون ، ويَعْوُون !

Eh - eh- eh- eh-eh-eh- eh-eh -eh !

Eh - eh- eh- eh-eh-eh- eh-eh -eh !

أطـوِّق بكُلِّ ذلك نفـسـي كَـمَنْ يتـدَثَّرُ بمعطف في البرد .

وأحْتَكُّ بذلك كُلِّه احتكَاك قطَّة متهيِّجة بجدار .

أزْأرُ مثل أسَدٍ يتضوَّرُ جُوعاً لذلك كله !

أندفع مثل ثورٍ مجنون نحو تلك الأشياء كلها !

أغرزُ الأظافر ، أقطع المخالب حَتَّى لَتَدْمَى من العَضِّ نواجذي !

Eh - eh- eh- eh-eh-eh- eh-eh !

فجأة تنفجر الصيحة جنب الآذان

مثل بُوق مُجاور ،

الصيحة القديمة مزلزلةٌ مَعْدنية ، في هذه الساعة ،

صيحة ندَاء الفريسة التى تُرى ،

نداء السفينة الشراعية التى ستُمتَطَى :

Ahó - óóóóóóóóóóó-yyyy...

Schooner ahó - óóóóóóóóóóó-yyyy...

العالم أجمع لا وُجود له بالنسبة إليَّ ! أشتعل احمراراً !

أزمجر في هيجان نزاعٍ للصدام !

أنا القرصان – الأعلى ، القيصر – القرصان أنهَبُ ، أقْتُل ، أفْتَرس ، أمزِّق !

لا أحسُّ سوى بالبحر ، بالفريسة ، بالنَّهب !

لا أحس سوى بخفقان الأوردة فى داخلى !

ما تُحسُّه عيناى يجرى دَماً ساخناً أمامى :

Eh - eh- eh- eh-eh-eh- eh-eh- eh !

أوه ، أيُّها القراصنة ، القراصنة ، القراصنة !

أمقتوني وأحبوني أيها القراصنة !

اعْجِنونى بِكُمْ أيُّها القراصنة !

يالهيـاجكم وفَظَاظَتكم كيف يـخاطبان دم جـسـد أنثـوي كـان جـسـدى من قبل ومـازال شـبقـه على قـيـد الحياة !

أريد أن أكون حيواناً يمثِّلُ جميع إشاراتكم،

حيواناً يغرزُ الأسنان فى الحبال ، فى الرافدات ،

يلتهم الصواري ، يشرب الدم والقطران فى جسور السفن ،

يمزّق الأشرعة ، المجاذيف ، البَكَرات والحبالَ ،

أريد أن أكون

حَيَّةَ بحر أنثويةً فظيعةً لا تُسمِّنُها سِوَى الجرائم !

ثمة سنفونيةُ إحساسات متنافرة متناظرة ،

فى دمي تصدح أوركسترا ضجَّات وجرائم ،

ضجَّات متشنِّجة مِنْ تهتُّك الدم فى البحار ،

فوَّارة كعاصفة منْ حرَارة فى الروح،

ثمت غمامة من عجَاجٍ تُغيِّم صَحْوي فتجعلني أرى

وأحلم بذلك كله بالجلد والأوردة فحسب .

القراصنة ، القرصنة ، المراكب ، الساعة ،

تلك الساعة البحرية التى هُوجِمتْ فيها الفرائس ،

تلك التى يغدو فيها رُعب الأسارى هروباً نحو الجنون – تلك الساعة بمجموع جرائمها ، بالرعب ، المراكب ، البشر ، البحر ، السماء ، الغيوم ، النسيم ، الطول ، العرض ، الصراخ ،

لطالما رغبت لو أنَّ جسدى كان جزءاً من ذلك الكُلّ معانياً ذلك الكل ، متألماً ، جسدى ودمى ، كينونتى كلها أحَوِّلها إلى الأحمر القاني لَدَى تفتُّحه تَفَتُّحَ طَعنةٍ تَتَأكَّلُ دم روحي الوهمى .

آه ، أن أكون كل شئ فى الجرائم ! أن أكون كل العناصر المكوِّنة للاعتداءات على المراكب ، للمذابح والاغتصابات !

أن أكون فى كل أماكن النهب ! أن أكونَ من نَهبوا ومَنْ نُهبوا !

أن أكون من عَاشَ أوْ بَلَغ الأوج فى أماكن التراجيديات الدموية !

أن أكون القرصان – المختزل للقرصنة كلها فى

ذروتها

والضحية – الصفوة ، لكن من لحم وعظم ، لجميع قراصنة العالم !

أن أكون فى جسدي السلبى المرأة – كُلَّ النساء المغتصبات ، المقتولات ، الطَّعِينات ، الممزَّقات على يد القراصنة !

أن أكون فى كينونتى المغلولة تلك الأنثى التى ينبغىَ ألاَّ تكون إلاَّ هى !

وأن أحسَّ ذلك كله – بجميع تلك الأشياء دفعة واحدة – فى العمود الفقرى !

أوه ، أبطالى المشعرين القَظَظَة ، أبطال المغامرة والجريمة !

وُحُوشي البحريين ، أزواج مخيِّلتى !

أيُّها المعشوقون الصُّدفَوِيُّون لحَساسيَّتى الزائفة !

أريد أن أكون المرأة التى تنتظركم على الموانئ ،

أنتم مَعشوقى دَمها القَرْصَنىِّ الأثيرين فى الأحلام .

لأنَّ لَهَا معكُمْ ، وإنْ فى الروح وحدها ، ارتعاشات الجثث العارية للضحايا التى ألقيتم بها للبحر .

لأنَّها هى التى رافَقتْ جرائمكم ، وفى سهرات

المحيط التهتُّكية رقصت روحها الكاهنية ، رقصتها اللأمرئية على حركات أجْسَادكُمْ ، خَنَاجركم ، أيديكُمْ الخنَّاقة .

وإنَّها إذ تنتظر عَلَى اليابسة مجيئكم ، إن كنتم تجيئون ، لَذَاهبةٌ لتعُبَّ منْ زئير عشقكُمْ ، كُلَّ الشساعة كلَّ العَبير الغائم والكارثىَّ لانتصَاراتكُمْ ، وعَبْر تشنجاتكم سَيْعْلو صَفيرُ ضَجَّة حَمْراءَ مُصْفرَّة .

اللحم الممزَّق ، اللحم المفتوح والمبقُور ، الدم الجارى !

الآن ، فى أوْج الحلم الخاطف بما فَعَلْتُموه ،

أهرْبُ من ذاتى كُلها ، فَأنا ماعُدْتُ مُنتَسباً إليكم ، لقد أصْبَحْت أنا أنْتُمْ ، وأنوثتى هذه التى ترافقكُمْ إنَّما هى أرواحُكُم بالذات .

أريد أن أكون فى صميم همجيَّتكُمْ عند ممارستكم إيّاها !

أنْ أمْتصَّ من الداخل وَعْيكُمْ بإحساساتكِم عندما كنتم تخضِّبون بالدَّم أعالى البحار ،

عندما كنتم تقذفون من حين إلى آخر لأسماك القرش بأجساد جرحى مازالوا أحياء وبحلم الأطفال الوردي ، ثم تأخذُون الأمَّهات إلى مقدمّة السفينة كى

يتمكَّنَّ منْ مُعاينة مَا يحدث !

أن أكونَ معكم في الذبح والنهب !

أن أكوِّنَ مَعَكُمْ أوركسترا لسنفونية القرصنة !

آه . ولا أعرف ماذا وَلاَ كَمْ منْ شيءٍ أريدُ أن أكونه منكم !

لافقط أن أكونكُمُ الأُنثى ، أكونكم الإناث جميعاً ، أكون أنا أنتم الضحية ، أنا أنتم الضحايا - رجالاً ، نساءً ، أطفالاً ، مراكب - ، ولا أن أكون الساعةَ والمراكبَ والأمواج فحسب ، أو أنْ أكونَ أرواحكم ذَاتَها ، أجسادكم ، غضبكُم ، تَملُّكَكُمْ ، ولا أن أكون الفعل المجرَّد لتهتُّكِكُمْ ، كَلاَّ ، لا أريدُ أن أكون هذا وحده ، بل أكثر من هذا : إلاهاً - لهذا كله ، عَلَيَّ أنْ أكون إلاهاً ، إلاهاً لعبادةَ معكوسة ، إلاَها مُريعاً وشيطانيا ، إلاه حُلُوليّة الدم ، حَتَّى أمنح القوَّة كُلَّها لغَضَبي المتخيَّل ، حَتَّى لا أستنفد أبداً رغباتي في التماهي مع انْتصارَتِكُمْ بعضناً وُكلاً وَمَعَ مَا هُوَ أبعدُ من ذلك .

آه ، عَذِّبُوني لأشْفَى ،مِنْ لَحْمي اصنْعَوا الهَوَاءَ

الذى تقطعُـه سكاكـينـكم قـبل أنْ تَـهْـويَ على الكواهل والرؤوس !

لتكُن شَراييني الثياب التي تنفُذُ السّكَاكين منها !

ومَخيِّلتي هي جَسَدُ النساء الذى اغتصبتموه !

وليكن ذكائي الجسْرَ الذى تمارسُون فيه القتلَ على قدَم وساق !

كُلُّ حَيَاتي في مجموعها العصَبي ، الهستيري ، اللامعقول ،

هي الجهاز الأكبر الذى فيه يتحوَّل كُلُّ فعل قرصنة مُقْترف إلى خَليَّة واعية ، وأنا كُلِّي ألفٌ وأدَوِّمُ ،

مثل عُفونة شاسعة متموِّجة

وقد صرتُ مَسْرحاً لذلك كُلِّه !

الآلة المحمومة لرؤاى الجموح تَدوُر الآن

بسُرعة مُفرطة رهيبة ، بينما وعيي ، مقْوَدى

مجرَّدُ دَائرة مظلمة تُصفِّرُ في الهواء :

« خمسة عشر رَجلاً فوق صدر الرجل الميت

يوها – هو – هو قنِّينة من روم !»

Eh-Lahó-Lahó-Lahó ... Lahá-á-ááá-ááá ...

أوه ، لوَحشية هذه الوحشية ، إلى الخراء كُلُّ حياةٍ

تشبه حياتَنا التى ليست شيئاً من هذا كُلِّه !

هَا أنَذَا طوع أيديكم ، أنا المهندس ، العَملي الحسَّاس بكل شئ ،

هنا تجدونني ، مشلولاً حتى عندما أمشي ، قياساً بكم ؛

خَاملاً حتى عندما أعمل ؛ وَاهناً حَتَّى عِنْدمَا أشتدُّ ؛

جَامَداً ، مُحبَطاً ، متُناقضًا خائفاً منْ هَالَةَ مَجْدكم ،

مِن ديناميتكم الهائلة الخارقة ، الساخنة الدموية .

ويحي ! ما أعجز فعلي عن مُجاراةِ هَذَياني !

ويحى ! دائماً أسيرُ متعلّقاً بأذيال الحضارة !

أجَرُّ العَادَات المهذَّبة فوق ظهري مثل إبَّالة دانتيلا ،

يَالَنَا منْ حَمَّالَين للإنسانوية الحديثة !

إنَّها نوبات مَسْلُولٍ ، نورستينىٍّ لمفاوىٍّ نوباتُ شخص بلاَ شجاعة ولا جسارة ،

ذي رُوح تشبه دجاجةً مُعلَّقة من رجل واحدة !

أوه ، القراصنة ! القراصنة !

إنَّهُ التعطُّش للهمجيِّ مُتَّحداً باللاقانوني ،

التعطُّش للأشياء المطلقة القسوة والوحشية وهى
تقضمُ مثْلَ اغتلاَم مجرَّد أجْسَامنَا النحيلةْ ،
أعْصَابنَا الأنثوية الرَّقيقة ،
وتَدُسُّ حُمَّى جنونية فظيعة فى نظراتنا الفارغة !
أجْبروني على الركوع أمامَكُمْ !
أهينوني واجلدونى !
صَيِّرونى عَبْداً لكم وشيئاً من أشيائكم !
وليبق احتقاركُم لى حَيًّا فيَّ لا يَبْرحُني أبداً ، أوه ،
يا أسيادى ! أسيادى !

لنأخذ دَوماً باعتزاز بالجزء الخاضع لأحداث الدم
والحساسيات الشاقة !
لتَنْهارُوا من فوقي مثل جدران هائلة ثقيلة ، أوه
يا برابرةَ البحر القديمِ !
مَزِّقوني واجرحونى !
خطِّطوا بالدم لحمى مِنْ شرق جسدى إلى غربِه !
قَبِّلوا بالسكاكين البحرية والسُّعار والسياط رُعبى
اللحميَّ الفرحان بالانتساب إليكم ، عَطَشي المازوخيَّ

فى أن أمنح ذاتي لغضَبكُمْ ، أنْ أكونَ مَوْضوعاً جَامداً ومُطيعاً لفظاظتكم التى تلتهم كل شئ ، أيُّها المهيمنون ، الأسياد ، الأباطرة ، الجياد !

آه ، عَذّبونى ،

مَزِّقونى ، افتحونى !

كَىْ أتفكَّكَ إلى قِطَعٍ حَيَّةٍ ،

اسفَحوني فوق الجسور ،

بَعْثروني فى البحر ، أسْلمونى

للشواطئ المتلهِّفة فى الجزر النوائى !

سَمِّنُونى بكل العشق التصوفى الذى أكنُّه لَكُمْ !

انقشوا بالدم روحي ،

مَزِّقوا ، شُقُّوا !

أوه ، يا وُشَّام مُخيِّلتى الجسدانية ،

السَّالخين المحبوبين لخُضوعى الشهواني ، أذلُّوني كَما تُذلُّون أىَّ كلب تقتلونه بِرَأْس قَدَمكم !

اجَعَلُوا منِّى بِئراً لازْدرَائِكم التَّسلُّطى !

اجعلوا مني كُلَّ ضَحاياكم مرّةً واحدة !

مثل المسيح الذى تألم من أجل البشر كافَّةً ، أريد

أن أتألم من أجل جميع الضحايا الذين قُتلوا على أيديكمُ !

أيديكم الحديدية ، السفَّاحة ، المبتورة الأصابع فى الاعتداءات الغادرة على وَاجهات السُّفن !

اجعلوا منِّى شيئاً مَّا ، أىَّ شئ ، كما لو كُنتُ مجروراً – أوه يااللَّذة ، أوه يا للألم الملثُّوم !–

بأذْنـاب خُيول ألهبتُمُوها أنتُمْ بالسياط ... ، لَكنْ ليَكُنْ هَذَا كُلُّه فى البحر ، فى البحر ، فى البـ – حـ – حـ – حر !

Yeh-eh-eh-eh-eh-eh-eh ! Yeh-eh-eh-eh-eh-eh-eh-eh !

كُلٌّ شئ يصيح ، كل شئ صياح ! رياح ، أمواج ، سفن ، بِحارٌ ، أشرعة ، قراصنة ، روحى تصيح ، الدم والهواء ، الهواء !

Eh-eh-eh-eh- ! Yeh-eh-eh-eh ! Yeh-eh-eh-eh !

الكُلُّ مع الصياح يغنى :

خمسة عشر رجلاً على صدر الرجل الميِّت

يو – هو – هو – مع قنينة من روم

Eh-eh-eh-eh- eh-eh-eh-eh-eh-eh ! Eh-eh-eh-eh-eh-eh-eh !

Eh-Lahó -Lahó-LaHo-O-O-óó Lahá - áá-ááá !

AHO-o-o-o-o-o-o-o-yyy ! ...

ScHooNERAHO-o-o-o-o-o-o-o--yyyy !...

Darby M' Graw - aw-aw-aw-aw-aw-aw !

DARBY M' GRAW - AW-AW-AW !

FETCHT A-A-AFT THE RU-U-U-U-UM

DARBY !

EH-EH-EH-EH-EH-EH-EH-EH-EH-EH !

EH-EH-EH-EH-EH-EH-EH-EH-EH-EH !

EH-eh-eh-eh-eh-eh-eh-eh-eh-eh-eh-eh-eh !

EH-EH-EH-EH-EH-EH-EH-EH-EH-EH !

شيءٌ مّا يتحطّم فجأةً فيَّ . بحُمرة الأصيل يتلَوَّنُ الإمساء .

لفَرْط ما أحسستُ لم أعُدْ قادراً علَى مواصلة الإحساس .

لقد استُنفِدت الروح ، ولم يبق سوى الصدى فى داخلى .

سرعةُ المقود تنخفض بشكل ملحوظ .

أحلامي تنزعُ قليلاً يديَّ عن عينيَّ .

لا يُوجُد فى داخـلي سوى فراغ ، صحراء ، بحر
ليلي .

هو ذلك البحر الليلى الذى ما إن أحس به داخلياً ،
هكذا ،

حتى تَصعْد منْ بُعْدِه ، وتُولدَ من صمته ،
مَرّةً وأخرى الصيحة الشاسعة الموغلة فى القدم .
فجأةً يُطوِّقُ كُلَّ الأفق البحرى ،
صخَبٌ بشرىٌّ ليليٌّ مُظلمٌ رطيب ،
صوتُ حوريّةٍ بحريّة ، بعيدٌ يبكى وينادى ،
قادماً من أعماق الأقاصى ، من عمق البحر ، من روح
المهاوي ،
وعلى سطحه تَطْفُو كالطحالب أحلامى المحطَّمة ...

Ahó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-yyyy ...

Schooner ahó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-yyy ...

أوه ، ياللَّندى يَغْمُر هيجاني !
ياللطراوة الليلية فى محيطى الداخلي !
وهَنُا كُلٌّ مَا فىَّ بغتةً وجَهاً لوجه أمام ليلة فى البحر
مفعمةٍ بالغوامض الإنسانية المهوِلة للأمواج الليلية .

البدر يطلع فى الأفق

وطفولتي السعيدة تستيقظ مثل دمعةٍ فيَّ .

يستيقظ الماضي كما لو أنَّ تلك الصيحة البحرية كانت عبيراً ، صوتاً ، صدى أغنية سَتَدْعُو من ماضِيًّ السحيق تلك السعَادة التى لن أحظى بها أبداً من جديد .

كان ذلك فى المنزل العتيق الهادئ على ضَفَّة النهر ...

(نوافذ غرفتى ، نوافذ غرفة الطعام أيضاً كانت تُطلُّ على بضعة منازِل خفيضة جنب النهر القريب ، نهر التاج ، نفسِ هذا التاج ، ولو أنَّه أكثر انخفاضاً فى موقع آخر ...

لَوْ أطللتُ الآن منْ نفسِ النوافذ

فَلَنْ أطلَّ أبداً من النوافذ نفسها .

لَقَدْ وَلَّىَ ذلك الزمن مِثْل دُخَان باخرةٍ فى أعالى البحار) .

حَنَانٌ لا يُفسَّر ،

نَدَمٌ دامع منفعل

من أجل كل الضحايا – خاصة منهم الأطفال –

الذين حلمت بصنعهم وأنا أتخيل نفسى قرصاناً قديماً ،

انفعال مُرْبكٌ لأنهم كانوا ضحاياى ،

انفعالٌ حنونٌ عَذْبٌ لأنهم لم يكونوا ضحاياى فعلاً ،

حنانٌ ملتبس مثل زجاج نافذة مزرقٍّ ، كامد ،

ينشد أغانى عتيقة داخل روُحى المسكينة المتألَّمة .

أوه ، كَيف استطعتُ التفكير والحلم بتلك الأشياء ؟

ما أبعدني الآن عَمَّن كنتُهُ منذ لحظات !

إنها هستيريا أحساسيس متناقضة ، تارة هذه ، تارة تلك .

كيف فى تنامي شُقرة الصباح لا تختار أذنى

سوى الأشياء المتلائمة مع هذا الإحساس : هدير الماء ،

الخرير الخفيف لِماء النهر مُتكسَّراً على الرصيف ... ،

المركب الشراعى لدَى مروره قريباً من ضفَّة النهر الأخرى ،

التلال النائية ، ذات اللأزَوَرد اليابانى ،

منازل الألمادا (2) .

لَكَمْ ثمة من نعومة وطفولية فى الساعة

الصباحية ... !

يَمُرُّ نورس

فَيكبرُ حناني .

لكن خلال ذلك الزمن كله لَمْ أنتبه لشئ .

كل شئ كان مجرَّد انطباع فى الجلد يُشبه المداعبة .

طوال ذلك الزمن لم أبعد عَينىَّ عن حُلُمى البعيد ،

عن منزلى العتيق جنب النهر ،

عن طفولتى النهرية ،

عن نوافذ غرفتى المطلَّة على النهر ليلاً

وعلى السكينة النورانية للقمر مبعثراً فوق المياه وخالتى العجوز التى أحبَّتنى بَديلاً لابنها الذى ثكلته ... ،

خالتى العجوز التى اعتادتْ أن تُهدْهدَ نَوْمتى مغنيةً :

(لَكَمْ صرتُ كبيراً على ذلك ، قياساً بمن كنتُ !)

أتذكَّر ، والدُّموع تنهمر على قلبى ، فتغسل منه الحياة ،

وثمَّتَ نسيم بحريٌّ خفيف يتصاعد بداخلى .

أحيانا كانت تغنى لى « مركب كاطرينيطا » :

« هناك يمضى مركب كاطرينيطا فوق مياه البحر
يمضي ... »

أحياناً أخرى كانت تغنى تلك الميلودراما القروسطية المشبعة نُوسطالجية عن الأميرة الجميلة ... أتذكَّر والصوت العجوز ينحَفر فىَّ ، وأتذكَّر كَمْ كان نَادراً فيما بَعْدُ تذكُّرى إيَّاها ؛ كم كان كبيراً حُبُّها إياى !

كم كنت جَحُوداً معَها ! – وفى النهاية ، ماذا فعلتُ بالحياة ؟

كانت الأميرة الجميلة ... وَأنَا كنتُ أغمض الجفنين وهى تغنِّى :

« بينما الأميرة الجميلة

فى حديقتها جالسة ... »

ثُمَّ أفتح العينين فأرى النافذة مغمورة بضياء القمر ، وبعْدَها أطبقُ الجفنين ثانية ، وأنا سعيد بذَلك كلِّه .

هى الأميرة الجميلة

فى حَديقتها جالسة

تمشط الضفائر

بمشط ذهبيٌّ فى اليد ...

أوه ، ماضيَّ الطفوليَّ ، يادُميتى التى حطَّمُوها !

منْ أين لى أن أسافر إلى الماضى ، إلى تلك الدار ، إلى ذلك الحضن العطوف ، ثم أمكث هنالك على الدوام ، طفلاً على الدوام ، سَعيداً على الدوام ؟!

لكن ذلك كله محضُ ماضٍ ، مجرد فَنار فى زاوية شارع عتيق .

لايَهَبُ التفكير فيه غير البرد ، غيرَ الجوع لأشياء لأيمكن امتلاكها .

التفكير فيه لا يمنحنى سوى نَدَمٍ بلا معنى .

أوه ، أيتها الزوبعة البطيئة لإحساسات متضاربة !

أيَّها الدُّوار الخفيف ! دُوار الأشياء الغامضة فى النفس !

ثمت هياجات مجهضة ، موجات حنان تشبه بَكَرةَ خيوط يَلْهُو بها الأطفال ، انهيار ات هائلة للمخيِّلة تحت أنْظار الحواس ، دموع ، دموع لاَ مُجدية ،

نَسمات خفيفة من الإحساس المتناقض تحتك عبر بالوجه ، بالروح ...

أستعينُ بقُوة الإرادة للخروج منْ هذا الانفعال ،

أستنجد بجهد يائس ، يَابِس ، فَارغ ،

بأغنية القرصان الأكبر عَندما ماكان يحتضر :

« خمسة عشر رجلاً على صدر الرجل الميّت

يو – هو – هو مع قنينة من روم »

لكنَّ الأغنية خَطٌّ مستقيم خُطَّ فى داخلى برَداءه ...

أستجمع قواى ، وأتمكَّنُ من استحضارها ثانية أمام أعيُن روحى ،

لكن عبر مخيلة أدبية تقريباً ،

أتمكُّنُ من استحضار أوج القرصنة ، أعداد الموتى ،

التعطُّشَ الَحنكي تقريباً للتخريب ،

المذبحة المجَّانية للنساء والأطفال ،

التَّعذيب المجاني للمسافرين المساكين ، فقط بقصد التسلية ، شهوة تحطيم أعزِّ الأشياء لَدَى الآخرين .

لكنَّنى أتخيَّل ذلك كُلَّه مع خوفٍ من شئ معيَّن أتنَفَّسه منْ قفاى .

وَأفكِّر أنَّه سيكون مُفيداً

شنق الأبناء تحت أعين أمَّهاتهن

(لكنني أحسُّني أمهاتهن رَغْما عَنِّى)

أوْ دفن صـغَـار من ذوى الأربعـة أعـوام أحـيـاء فى جـزر خـلاء أمـام أعين آبائهم المسـوقـين لرؤيتـهـم فى مراكب شراعية

(لكننى أقشعرُّ عند تذكُّرى الابنَ الذى لا أملكه وهو ينام بهدوء فى البيت) .

أسْتَـثِـيرُ رغبـاتٍ فىَّ باردةً فى اقـتـراف جـرائم بحرية ،

فى تفتيش بدون تبرير من الإيمان ،

فى جـرائم لاتبـرِّرُ حـتَّى القـسـاوة أو الجـنون الأهوج ،

جرائم مقترفة ببرود ، بدون حتى نيَّة الإيذاء ،

ولا حتى التسلية ، وإنَّما لتمضية الوقت فحسب ،

كَمَنْ يَلْعَبُ الورق بعـد العشـاء بمفرده على مـائدة طعام ريفية وقد طُويت السفُّرة حتى الجهة الأخرى من المائدة ، فقط بقصد التلذّذ الناعم بارتكاب جرائم فظيعة ثُمَّ اكتشاف أنَّها ليست أمْراً ذَا شَأْن ، ومشـاهدة مَنْ يتألَّمون لذلك حتى الجنون ، أو حتى الموت ألَماً ، وإن لَمْ يتمَّ بلوغ الموت أبداً ...

غير أنَّ مخيِّلتي تَأبَى مُرافقتي

وثمة قشعريرة تستبدُّ بي .

وبغتةً ، وبأسْرَعَ ممَّا جرى فى المرة السابقة ،

وَمنِ نقطةٍ أبعد وأعمق ،

بغتةً – أوه للرعب يسرى فى عروقي كلها ،

أوه للبرودة المنبعثة من بوأبة السِّرِّ لدى انفتاحِها لإتاحة دخول تيار هواء !–

بغتةً أتذكَّر الله ، أتذكَّر متعاليات هذه الحياة ، بغتةً الصوتُ القديم للبحَّار الإنجليزى جيم بارنس الذى كنت أكلِّمه ، وَقَدْ غَدَا صوت الحنانَات المبهمة فى داخلى ، صوت الأشياء الصغيرة والحميمة لحضن الأم وصوت شريط ضفيرة الأخت لكنْ منبثقاً بخرافية من وراء ظواهر الأشياء ، إنَّه الصوت الأصمُّ النائى وقد أضْحَى صوتَ المطلق ، صوتا بلا فم قادماً من فوق ومن داخل العزلة الليلية للبحار ، ينادينى ، ينادينى ، ينادينى ...

صوتاً أصَمَّ يأتى ، كأنَّما يُسمعُ خفيةً ، من البعيد يأتى كما لو كان يَرِنُّ فى مكانٍ آخر بدُون أن يُستطاع سماعُهُ هنا ، مثل نشيج مخنوق ، مثل ضَوء يُطفأ ، لهاثُ صامت ، لا منْ جهة فى المكان أتَى ولا منْ جهة فى الزمن ، صَيْحة ليلية خالدة ، هبَّةٌ عميقةٌ غامضةٌ :

Ahó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-yyyy

Ahó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-yyyy ...

Schooner ahó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-ó-yyy ...

إنَّني أرتجف من برودة الرُّوح التى يَبثُّها الجَسَدُ فىَّ
وأفتح بغتةً عينىَّ اللتين لم أغمضهما بعد ،

أوه ، ما أبهج التخلُّص من الأحلام دفعة واحدة !

هَاهُو ذَا العالم الواقعي من جديد ، لتهدئة الأعصاب !

هَا هُوَ ذا فى هذه الساعة الصباحية ، حين وصول
سفن المحيطات مبكِّرةً !

وصول سفينة المحيط لا يعنينى ، فهى لا تزال
بعيدة .

وحده ماهو قريب الآن يُطهِّر روحى .

مُخيِّلتى المعافاة ، القوية . العملية ،

منشغلة فحسب بالأشياء العصرية والمفيدة ،

ببواخر الشحن ، عابرات المحيطات والمسافرين ،

بالأشياء الفوريّة الفعَّالة ، العصرية ، التجارية ،
الحقَّة .

وبداخلى يخفِّف المقود دورانه .

ما أروعَ حياة البحر الحديثة !

كُلُّها نظافة وصحَّة وآلات !

كل شئ جيِّد الترتيب ، ومضبوط بتلقائية ،

كل قِطع الغيار ، كل السفن فى البحر ،

كل عناصر الحركة التجارية ، من صادرات وواردات متوافقة فيما بينها على نحو عجيب ، حيث يسير كل شئ ، كأنَّما وفق قوانين الطبيعة ، من دون أن يصطدم أيُّ شيء بشئ !

لم يخسر الشعر شيئاً ، فهناك الآن علاوةً عليه ، هذه الآلات بما تحْويه هى كذلك من شعر ، وكَل النوع الحياتى الجديد ، التجارى ، الدينوى ، الثقافى ، الروحى ، هذا الذى جاء عصرُ الآلات ليزوِّد به أرواحنا .

إن أسفار اليوم جميلة مثل أسفار الأمس وما من سفينة إلاَّ وستبقى جميلة لمجرَّد أنَّها سفينة .

مازال السفر هو السفر ، والبعدُ دائماً مازال حيث كان .

– حمداً لله ، فى اللامكان !–

موانئ مزدحمة ببواخر من شتى الأصناف ، صغيرة ، كبيرة ، متعددة الألوان ، بكُوى مختلفة

المواقع ، لشركات ملاحية متنوعة !

بواخر راسية فى الموانئ منفردة بسبب الفواصل بين المراسى !

ما ألطف أشياءها التجارية رشيقةً تمخر البحر بهدوء ، البحر الهوميرى على الدوام ، أوه أو ليس !

مرأى المنارة الإنسانى فى المدى الليلى أو المنارة الدانية فجأة فى الليل البهيم

(« لَكَمْ كنا قريبين من اليابسة لدى مرورنا ! »
وهديرُ الماء يطرب السمع ...)

كل ذلك هو اليوم مثلما كان ، لكن هناك التجارة والمصير التجاري للبواخر الكبرى اللَّذان يَجْعلانني فَخوراً بعصري .

والخليط البشرى المُتزَاحم فوق سفن المسافرين يمنحنى الزهو الحداثى بالعيش فى عصر أصبح ميسوراً تماماً فيه الاختلاط بين الأجناس ، قهرُ المسافات ، رؤية كل الأشياء بسهولة والاستمتاع بالعيش بتحقيق أكبر قدر من الأحلام .

أحاسيسى نقية ، متناسقة ، عصرية مثل بناية إدارية ذات عوارض من نحاس أصفر ، أحاسيسى الآن طبيعية ومهذَّبة مثل جنتلمان ، عمليةٌ ، بعيدة عن الهذيان ، وهى تملأ رئتيَّ بالهواء البحري كأيَّةِ

مـخلوقات تُدرك مِقْدار العـافيـة الكامنة فـى استنشـاق هـواء البحر .

ساعات النهار كُلُّها ساعات عمل متواصل .

كل شئ ينخرط فى الحركة والانتظام .

وبلذة طبيعـيـة عَفـوية كبرى تتفـقَّدُ روحــى جـمـيع العَمليات التجارية الضرورية لشحن السفن التجارية .

جميع الفواتير مطبوعة بطابع عَصْرى هذا ، وإنَّنى أحـس بِأنَّ كـافَّـة رسـائل المؤسـسـات ينبـغى أنْ تُوجَّهَ إلىَّ .

- مَا منْ معرفة بالشحن إلاَّ وَلَها خصوصيتها ، وأىُّ إمضاء يَبصمُهُ رُبَّان لا يَخْلُو من عصرية وجمال !

الصـرامـة المميِّزة لمطالع الرسـائل التـجـارية ولخواتمها :

Dear Sirs - Messieurs - Muy seniores nuestros,

Yours Faithfully ... Nos salutations empressées ...

وهذا كُلُّه ليس إنسـانيـا وحـسـب ، بل هو أيـضـا جـميل ، وله فى النهاية طرقـه البحرية ، باخرةٌ مـحمَّلةٌ بالبضائع هى موضوع تلك الرسائل والفواتير .

ما أكثر تعقيدات الحياة ! فالفاتورات أَعَدَّها أنَاسٌ

يحبُّون ويكرهون ، ولهم أهواؤهم السياسية ، وجرائمهم أحياناً ، لكنْ ما أجْودَ كتابتَها وتصفيفَها و ما أبعدها عن كل ذلك !

هناك ، مع ذلك ، مَنْ ينظر إلى فاتورة ما ، بدون أن يستطيع الإحساس بشئ .

لكنك أنتَ بالتأكيد ، يا ثيثاربو بيردى (3) قد أحسستَ بذلك .

إنَّنى إنسانىٌّ جداً لأُحسُّ بذلك حتى الدموع .

حَسناً فَلاَ يأتينَّ أحدٌ ليقول لى بألاَّ شعر ثمت فى التجارة ، فى المؤسسات !

هَيَّا بنا ... ، إنَّهُ لينفُذُ عَبَر المسامّ كُلِّها ... فى هذا الهواء البحرى أستنشقه ، لأنَّ كلَّ ذلك مُلائم تماماً للبواخر والملاحة الحديثة ، لأنَّ الفواتير والرسائل التجارية هى مبتدأ التاريخ والسفن حاملة البضائع فى البحر الخالد هى منتهاه .

آه ، لَهَفى على الأسفار ، الأسفار التَّرفيهية ، والأسفار الأخرى فى البحر ، نغدو جميعاً رفاقاً لبعضنا البعض بطريقة خاصة ، كما لو أنَّ سِراً بحرياً يُقَارب مَابَيْنَ أرواحنا ويجعلنا لفترة معينة ، مواطنين عابرين فى وطن ملتبس لاَهَمَّ لَهُمْ غيرُ الترحال الأبدى فوق شساعة الحياة !

يافنادقَ اللانهائى الهائلة !أوه سُفُنى الأثيرات !

بكَوْنيَّتكُنَّ الكاملة الشاملة إذ لا تتوقَّفن عند أيَّة نقطة مَعَ ما تحوينه منْ شَتَّى أنواع الأزياء ، والأوجه ، والأجناس !

الأسفار ، الأسفار – ما أكثر أنواعها !–

ما أكثر البلدان والجنسيات فوق هذا العالم ! ما أكثر المهن ! ما أكثر البشر !

لَكَمْ هو مدهشٌ تنوُّعُ المصائر التى يمكن أن تُمنح للحياة ، للحياة التي هى فى النهاية ، فى العمق ، دائماً هى نفسها !

ما أكثر الوجوه المستطلعة !– كل الوجوه تحب الاستطلاع ! ... ، وَمَا منْ شئ يمنحنا التديُّن المفرط مثل إدمان النظر إلى البشر ، أمَّا الأخَوةُ فليست فكرة ثورية فى آخر المطاف .

هى شئ نتعلَّمه طوال حياتنا التى علينا أن نتسامح فيها مع كل شئ ، مع ما قَدْ نَجدُهُ من نعمة فيما نتسامح معه ، وما ننتهى إليه من البكاء حَناناً تقريباً على مَا تَسامحنا بصدده .

أوه ، كل ذلك جميل ، كل ذلك إنسانى وموصول بالعواطف الإنسانية المعايشة والبورجوازية ، الشديدة التعقيد فى بساطتها ، ذات الكآبة الميتافيزيقية جداً !

الحياة الرجراجة ، المتنوعة ، التى تنتهى بتهذيبنا

داخل ما هو إنسانى :

مساكين ! يالهم من أناسٍ مساكين ! الناس ، كل الناس مساكين !

إنَّنى أودِّع هذه الساعة فى جسم المركب الآخر الذى يغادر الآن . إنه مركب إنجليزى شديد القذارة كما لو كان سفينة فرنسية ، برائحة البروليتاري الجذَّابة ، بروليتارى البحار الذى أعْلَنوا ولا ريب عن رحلته فى الصفحة الأخيرة من الجرائد اليومية [4] .

الباخرة المسكينة تؤثِّر فىَّ ، كَمْ هى متواضعة وطبيعية أثناء مرورها .

يبدو أنَّها تعاني من وسواس معيَّن من شئ لا أدرى كنهه ، مثل شخص عفيف بصدد إنجاز واجب ما .

هنالك تمضى تاركة حَيِّزاً قبالة الرصيف حيث أوجَد .

هنالك تمضى بهدوء من حيث مَرَّت السفن الشراعية فى الزمان القديم ، القديم ...

أإلَى كرديف ذاهبةٌ هى ؟ أإلى ليفربَول ؟ إلى لندن ؟ لايهم .

إنها تقوم بواجبها . كذلك نقوم بواجبنا نحن ، ما أروعها حياةً !

سفر طيب !سفر طيب !

سفر طيب ، ياصديقتى المسكينة والعابرة ، يا مَنْ أسديت إلىَّ أفضل معروف بأن حملت معك حُمَّى أحلامى وأحزانها ، ورددت إليَّ الحياة عندما نظرتُ إليك فأبصرتك تمضين ...

سفر طيب !سفر طيب !إنها الحياة ...

يالرباطة جأشك الطبيعية ، التى لا يمكن تفاديها وأنت تُغَادرين ميناء لشبونة اليوم !

إنَّنى لأشعر بوُدٍّ مُمْتَنٍّ حيالك ، لأجل ذلك ...

أيّ ذلك ؟ وكيف لى أنا أن أعرف ذلك ... هَيَّا ... امضِي ... مُرَّي ...

برعشة خفيفة

(t .... t .... t .... t .... t ....)

يتوقف فى داخلى المقود الدوَّار .

لتمضي ، أيتها الباخرة ، البطيئة ، مُرَّى ولا تمكثى ...

اذهبى عنى ، اغرُبي عن بصرى ،

اغربى من داخل قلبى ،

فى البعيد ضيعي ، فى البعيد ، فى عرض البحر يا

سحابة الله ،

ضيعي ، واصلي مصيرك ، واتركيني ...

مَنْ أكون أنا حَتَّى أبكيك وأسائلك ؟

مَنْ أكون أنا حَتَّى أكَلِّمك وأعشقك ؟

مَنْ أكون أنا حَتَّى أتكدَّرَ عند رؤيتك ؟

اتركى الرصيف ، فالشمس تنمو ، ذهباً يلتهب ،

تتلألأ أسْقُفُ مبانى الرصيف ،

كُلُّ هذا الجانب من المدينة يلتمع ...

اِرحلي ، هيًّا ، دَعينى ، تحوَّلى

أوَّلاً إلى سفينة وسط الرصيف النهرى ، مرئيةً وواضحة ،

ثم إلى مركب أسود على طريق حصباوي ،

ثم إلى نقطة مبهمة فى الأفق (أوه ، ياالْقَلَقى !)

نقطة تزداد انْبِهاماً مَرّةً تِلْوَ أخَرى ،

ولا شئ بعد ذلك ، لا شئ ، إلاَّ ما كَانَ منِّى وحدي أنا وحزني ،

والمدينة الكبيرة مغمورة بالشمس الآن ،

والساعة الواقعية العارية مثل رصيف بلا سفن ،

ودوران الرافعة البطيء، مثل بركار دوَّار

يخط في صمت روحي المضطرب نصف دائرة

انفعال أجهل كنهه .

1915 .

تزجية الوقت

نشيد حِسَّوى

إلى خوصى ألمادا نيغريروس .

ألمادا نيغريروس : لا يمكنكَ أن

تتصورْ كَمْ أشكرك على أنك

قد وُجدت .

ألبارودى كامبوس

I

أنْ أحسّ كُلَّ الأشياء بجميع الطرق الممكنة ،

أنْ أعيش الأشياء كُلَّها فى كل الجهات ،

أنْ أكونَ الشيءَ ذاتَه بجميع الصيغ الممكنة فى وقت واحد ،

أن تتحقَّق فيَّ الإنسانية جمعاء لكل اللحظات فى لحظة واحدة مطوَّلة ، مديدة ، كاملةٍ بعيدة .

أريد دائمـــاً أن أكــونَ ذلك الذى أتعــاطف مــعــه ، سـأتحـوّل دائماً ، عـاجـلاً ، أم آجلاً إلى ذلك الذى أتعاطف مـعـه ، حـجـراً كـان أم حنيناً ، زهرة أم فكرة مـجـرّدة ، حشداً بشريا أم طريقة لفهم الله .

متعاطفاً مع الجميع ، أعيش الكل فى الكل ، الرفعاءُ من الرجـال جـذّابون عندى لأنهم رفـعـاء ، والوُضـعـاءُ عندى كذلك لأنهم وُضـعـاء أيضـاً ، إذا كان من هو أدنى مـخـتلفاً عَمَّنْ هو أعلى فلقد يُحـسب ذلك امـتـيـازاً فى حـالات مـعـينة . بحـسب الرؤية للأمـور . أتعـاطف مع رجال لمزاياهم الخلقية ، وأتعاطف مع سواهم لافتقارهم إلــى تلك المزايا ، ومع آخــرين لأنَّهم حُــرِمــوا من أيَّةِ جاذبيّة ، وثمت حالاتٌ عضوية جداً يبدو لى كل الرجالَ فيها جذّابين .

أجل ، بصـفـتى العـاهل المطلق فى مملكة تعـاطفى ، حَسْبُ التعاطف أن يُوجد كى يمتلك مبرِّرٍ وجوده .

إلى صدري المختلج أضمُّ فى عناقٍ مؤثّر ،

(هو نفسُ العناق المؤثّر)

الرجلَ الذى يهبُ القـمـيص للمـسكين المجـهـول ، الجندىَّ الذى يموت من أجل الوطن من غير أن يعرف ما هو الوطن ، و ...

وقـاتلَ أمِّـه ، قاتلَ أخيه ، منتـهكَ المحارم ، مغتـصب الصـبـيـان ، قـاطع الطرق ، لصَّ البـحـار ، النشّـال ، الظلَّ المتربِّص فى الزوايا ...

جميعـهم يُشكِّلون عشيقتى الأثيرة على الأقل فى لـحظة معينة من الحياة .

أقبِّلُ ثَغْر كُلِّ المومسات ،

أقبِّلُ عيون كُلِّ القوَّادين ،

تتـمدَّدُ سَلْبـيَّتى عند أقدام كـافَّة القـتلة ، ومـعطفى الإسبانى يغطي انسـحاب كافَّة اللصوص .

كل الأشياء إنما هى مبرِّرٌ لوجودى فى الحياة .

كلَّ أنواع الجرائم اقترفت ،

فى قلب كل الجرائم عشت ،

(وأنا نفسى . لم أكن فى الرذيلة أيًّا من هؤلاء ،

بل كنتُ الرذيلة نفسها ممارسة من طرفهم ،

ومن ثمة أستمدُّ لحظات الظفر فى حياتى)

تَعدّدتُ كى أحسَّ بذاتى

ولـكى أمـارسَ الإحـسـاس ، كنتُ بحـاجـة إلى الإحساس بكل شئ ،

طفحتُ وارتشحتُ ،

تعرَّيتُ ووهبتُ للغير نفسى ،

وفى كُلِّ زاوية من زوايا الروح أقمتُ مذبحاً لإلاه مغاير .

أذرعُ كل العذّائين طوَّقتنى بغتةً مِثْلَ أنثى ،

وأنا لمجرد تخيُّل ذلك أغمىَ علَيّ بين العضلات المتخيَّلة .

لِفَمى منُحتْ قبلات كُلِّ المواعيد الغرامية ،

فى قَلْبى تَمَّ التلويح بمناديل الوداعات كلها ،

كُلُّ النداءات البذيئة بالإشارة أو النظرة صفَعَتْ جسدي المتعطِّش فى نُقطه الحساسة .

كنتُ النُسّاك كُلَّهمْ ، كُلَّ المتروكين للحساب ، كُلَّ أنواع المنسيّين ، وكُلَّ اللّواطيين – مُطلق اللواطيين (من دون أن ينقص أىُّ واحد منهم) .

آه أيُّها الموعد بالأحمر الأسود فى قاع جحيم روحي !

(فريدّى ، كنت أناديك بابى لأنك كنت أشقر شاحباً وكنت أحبك ، كم كنتُ أرى فيك من إمبراطورات متوَّجات وأميرات مخلوعات !

ماري التى معها كنتُ أقرأ بيورن فى أيام كئيبة كآبة الإحساس بالحياة ،مارى ، أنت لَنْ تعرفى أبداً

عَـددَ الأزواج الشـرفـاء والعـائلات السـعـيـدة التي عـايَشَـتْـهـا عـينـاى من خـلالك وذراعى فـوق رِدْفَـيك ، ووَعْيي غـائم القَـسَـمـات ،عَددَ الحيوات الـهـادئة ، المنازل ذوات الحـديقـة فى الضـواحى ، أنصـاف العُطَل غـيـر المتوَقَّعة ...

ماري ، تَعِسٌ أنا ...

فريدى ، أنَا تَعسٌ تعس ...

أوه ، أنتم كُلكُمْ ، كُلُّكُمْ أيُّـها العـابرون ، المتـأخـرون كم مَرّةً خَطَر بأذهانكم التفكير فىَّ ولم تفعلُوا !

آه ، لَكَم كنتُ ضـئيل الشـأن عندكم ، كم كنتُ ضـئيل الشـأن ...

أجل ، ثم ماذا كنتُ يا عالمى الذاتى ،

أوه ، ياشـمـسى ، ياقمـرى ، يانجـومى ، ياحِصَّتى من الزَّمن ،

أوه ، أيُّها الجـزء الخـارجى من ذاتى الضـائعـة فى متاهات الله !)

الكُلُّ يمرُّ ، كل الأشياء مصطفّةً بداخلى تمر ،

وبداخلي كل مُدن العَالَم تُوشوش ...

قلبى مـحكمـة ، قلبى سوقٌ ، قلبى صـالة بورصـة ، قلبى طاولة بنكية ،

قلبى موعد الإنسانية جمعاء ،

قلبى مقعد حديقة عمومية ، نُزْل ، فندق ، زنزانة رقم كذا

(« هنا أقام الـ مانولو قُبيل أن يُساق إلى سقالة الإعدام »)

قلبى ناد ، صالة ، باحة أرائك ، نجمة ، شبّاك ، بوّابة ، جسر ، بابُ حديد ونزهة ، مسيرة ، مزادٌ ، معرضٌ موسم حجٍّ ،

قلبى خصاص بابٍ ،

قلبى صندوق بَريد ،

قلبى رسالة ، بضاعة ، يضى ، تسليم ،

قلبى الهامش ، الحَد ، الموجز ، المؤشّر

قلبى بَازار Eh - Lá , eh - Lá , eh - Lá

....

....

أَحْملُ فى قلبى

كما لو فى خَزانة مكتظّة عصيّة الإقفال

كُلَّ الأمكنة التى بها حَلَلْتُ ،

كُلُّ الموانئ التى إليها وصلت ،

كلُّ المناظر التى حَالما شاهدْتُها ،

منَ النوافذ أو الكُوَى أو الجسور ،

غَيرَ أنَّ ذلك كُلَّهُ ، على كثرته ،

أقلُّ بكثير ممَّا أرغب فيه .

مدخل سنغافورة ملوَّناً بالاخضرار مع انبلاجة الصباح ،

دفء المرور بمرجان جزر المالديف ،

ماكاو فى الواحدة صباحاً ... أستيقظ فجأة ...

Yat - Lô - ô- ô - ô- ô- ô- ô - ô ... Ghi ...

وكل ذلك يَرِنُّ بداخلى من أعماق واقع آخر ...

القَوام الشمال إفريقى تقريباً من زنجبار تحت الشمس ...

دار السلام (الخطرة عند الخروج) ...

ماجونكا ، نوسّى – بى ، اخضرارات مدغشقر ...

العواصف المحيطة بكَواردافوى ...

ورأس الرجاء الصالح ناصعاً تحت أشعَّة الصباح ...

ومدينة الرأس بجبل المائدة فى خلفية المشهد ...

سافرتُ إلى بلدان كثيرة أكثر من تلك التى زرتها ،

شاهدتُ مناظر كثيرة أكثر ممَّا رَأتْ عيناى ..

جَرَّبت أحاسيس أكثر من كل تلك التى أحْسَسْتُها ،

لأننى مِنْ فرط ما أحسستُ ظل ينقصنى دائماً شئ أحسُّه ،

والحياة دائماً عذَّبتني الحياة ، ما منحتني كان دائماً قليلاً ، أنا التَّعيس .

فى لحظات معينة من النهار أحس بالذعر عندما أتذكَّر ذلك كله ،

وأفكِّر فيما سيتبقَّى لى من هذه الحياة المجزَّأة ، من هذا الأوج ،

من هذا الطريق المتعرِّج ، من هذه السيارة على حافَّة الطريق ، من هذا الإنذار ،

من هذا التعكُّر الهادئ لأحاسيس ناشزة ،

من هذا الصّفق ، من اللاجوهريَّة هذه ، من هذا التواؤم القُزَحى ،

من هذا القلق فى قاع كل الأكمام الزهرية ،

من هذا الضَّجر المقيم فى أعماق كل الملذَّات ،

من هذا الشَّبَع الطَّافح على عُرَى الفناجين كُلِّها ،

من لعبة الورق المُملَّة هذه بين رأس الرجاء الصالح وجزر الكنارى لا أدرى أهى الحياة قليلة بالنسبة إليَّ أم أكثر مما يلزمنى ؟

لا أدري أبَالقلَّة أحِسُّ أم بالكثرة ؟ لا أدرى

أينقصنى وسواسُ روحى ، نقطة ارتكاز فى الذكاء ،

قرابةٌ دموية مع سرِّ الأشياء ، صدمةٌ عند الاتصال ،

دفق الدم تحت الضَربات ، ارتجاجٌ عند أقلِّ ضجَّة ،

أمْ أنَّ لهذا كُلِّه تفسيراً أدْعَى للطمأنينة والسعادة ؟

كائناً ما كان الحال ، ألاَّ أولَدَ كان هو الأفضل ،

لأن الحياة مَهْما كانت مشوِّقة فى كل اللحظات ،

لابد أن تعذِّبنا و تبعث فينا الغثيان ، تبترنا ، تستهلكنا ، تحملنا على أن نَصِرَّ ، تمنحنا الرغبة فى الصراخ ، فى الوثوب ، فى الالتصاق بالأرض ، والخروج من كافَّة البيوت ، وَنبْذ كلِّ منطق والقفز من كل الشرفات ، والمُضىِّ إلى حيث نصيرُ متوحِّشين حتى الموت بين الأشجار والنسيان ، بين الزلازل والمخاطر وغياب الغد .

لكن ذلك كُلَّه كان ينبغي أن يكونَ أيَّ شيء آخر مطابق لما أفكِّر فيه ومَابِهِ أحس ، دُون أن أعلم مَاهُو ، أوهٍ أيتها الحياة .

أضُمُّ ذراعيَّ بهيأة صليب على المائدة ،

وبينهما أضَعُ رأسي ،

أنا بحاجة إلى الرغبة في البكاء ، لكن لا أعرف طريقة لاستثارة الدموع ...

رغم ما أبذل من جهد لأمتلك أكبر قَدْرٍ من الإشفاق على نفسي

لاَ أنْجح في البكاء .

روحي متشقِّقة بفعل السَّبَّابة التي تحكُّهَا

ماذا سيصير مني ؟ تُرى ماذا سيصير منِّي ؟

دُونَما دَاعٍ ضربوا مُهرِّج القَصْر بالسيَّاط ،

أنهضوا المتسوِّلَ من كبوته على الدَّرج ،

جلَدوا الطفل المنبوذ نازعين كِسْرة الخُبز من يديه .

أوه ياعذابَ هذا العالم اللامحدودَ ، ما ينقصني هو الفعل ...

يَالَه منْ تدهور ، يَالُه من تَدَهْور ، يالَهُ من تدهور ...

لا أكون بحالٍ جيدة إلاَّ لَدى سماعي الموسيقى ، ولا

حتى فى هذه الحال .

ياحدائق القرن الثامن عشر قبل 89 ، أين أنتنَّ ؟ ذلك أننى أريدُ البكاء بأيَّةِ وسيلة .

مثل بَلْسم يُواسينا لمجرد تصوُّر أنه بَلْسم يواسى ينزل المساء رتيباً رويداً رويداً ، مساءُ هذا اليوم وكل الأيام .

لقد أنيرت الأضواء ، ينزل المساء ، وتتعاقب الحياة .

لابد من مواصلة العيش مهما كانت الوسيلة .

مثْل يَدٍ تَضْطَرمُ الرُّوحُ فيزيقيا لديّ

وأنا واقف فى طريق الجميع الذى يتعثَّرون بى ،

ياضيعتى فى الإقليم الريفى ،

لو أنَّ بينى وبينك قِطاراً على الأقل ، عربةً ، قراراً بالسفر .

وأبقى هنا وأبقى ... أنا من يرُيد الرحيل دائما ودائماً يبقى ، دائماً يبقى ، دائماً يبقى ، حتى الموت يبقَى ، حتى لو رَحَل يبقى ، يبقى ، يبقى ...

ألاَ فلتَعُد إنسانيّاً إليَّ أيُّها الليل ، عُدْ أخَويّاً إليَّ مفعماً عنايةً .

إنسانياً فحسبُ يمكن العيش .

فقط بحب الرجال ، حب الفعل ، حب المَهامِّ المبتذلة ،

هكذا فقط – ياويحى !– هكذا فقط يمكن العيش

هكذا فقط ، أوه أيُّها الليل ، وأنا لا يمكن أبداً أن أكون هكذا !

رأيتُ كُلَّ شيء وأعجبتُ بكلِّ شيء

لكنَّ كل شيء كان إمَّا زائداً على ما أريد أو أقَلَّ

ممَّا أريد – لا أدرى كيف – وهكذا تعذَّبت .

عشتُ كل الانفعالات ، كُلَّ الأفكار ، كلَّ الإشارات

وبَقيتُ حزيناً ، مع ذلك ، حزيناً أكثر ممَّا كنتُ

كما لو أنَّنى أرَدْتُ أن أعيش ذلك كله من دون أن أظفر بشيء منه .

مثل كل الناس أحْببتُ وكرهت ،

لكن إذا كان ذلك بالنسبة إلى الجميع أمْراً طبيعياً وغريزياً

فإنه كان عندى استثناءً ، صدمةً ، صِمَاماً ، وتشنُّجاً .

تَعالَ إلىَّ أيُّها الليل ، وأطفئنى ، تَعَالَ وأغرقنى فيك ،

يا مُدلِّل العالم العلوي ، يا سيِّد الحدَاد اللانهائي ،

يا ألم الأرض البرّاني ، يا بكاء العَالمَ الصامتَ ،

أيتها الأم الناعمة القديمة لانفعالات لا تعبير لها ،

أيتـهـا الأخت الكبـرى الحـزينة العـذراء للأفكار المشتَّتة ،

أيتها الخطيبة المترقبةُ أبداً مقصدنا الناقص ،

طريقَ مصيرنا المهجورَ على الدوام ،

شكَّنا الوثنيَّ الخالى من المسرَّة ،

ضُعفنا المسيحىَّ المجرَّدَ من الإيمان ،

بوذيَّتَنَا الجامدة المجرَّدة من محبَّة الأشياء ومن نشوة الوجد ،

حُمَّانَا ، شحوبَنَا ، نَفادَ صبرنا ،

ياحياتنَا ، أوهٍ أمنَّا ، حياتَنا الضائعة ....

لا أعرف كيف أحسُّ ، لا أعرف كيف أكون إنساناً ، ولا كيف أتعايشُ من أعماق الروح الحزينة معَ البشر إخوتى على الأرض .

لا أعرف أن أكون نافعاً عنْدمَا أحسُّ لا أعرف أنْ أكون عمليّاً ، واضحاً ، مندمجاً فى اليومى ،

وَلاَ أنْ أتَّخذَ لى مكاناً فى الحياة ، وأن أمتلك غايةً محدَّدة بين الناس ،

عملاً ، قُوَّةً ، إرادة ، بستاناً ،
وسيلة للراحة ، مبرِّراً للتسليَّة ،
شيئاً مّا يأتي من الطبيعة مباشرة إليَّ .
لذلك كُنْ أومياً معي أيُّها الليل الهادئ ...
أنت ، من تنتزع العالم من العالم ، أنت ، السلام أنت ،
أنت الذي ليس لك وجود ، أنت الذي لست سوى غياب للنور ،
أنت الذي لست بشيء ، لا يمكن ، ولا ذات ، ولا حياة ،
أنت نسيج بنيلوب المنسول غداً من عتمتك ، بنيلوب
المَكَّارة اللاواقعية للمحمومين ، للقانطين بلا سبب ،
تَعالَ إليَّ أيُّها الليل ، ومُدَّ نحوي اليدين
وكُنْ بَرْداً وسلاماً على جبيني أيُّها الليل ...
أنت ، يا مَنْ يبدو حُلُولُكَ لفرط نُعومتِه نَأياً ،
أنت بجزر ظلامك ومَدِّه حينما يكون للقمر المتنهد
أمواج حنان ميِّت ، برودة بِحَارٍ من حُلم ،
نسيمُ مَشَاهد يخترعها قَنْطُنا الطاغي ...
أنت ، شاحباً ، دمعياً ، سائلاً ، أنت

يا عبير الموت بين الزهور ، أنفاسَ الحُمَّى على الضفاف ،

أنت ، الملكة ، أنت ، القشتاليُّ ، أنت ، السَّيِّد الشَّاحب ، تعال .

....

....

نَفِيرٌ واضحٌ للصباح في عمق
نصف الدائرة البارد من الأفق ،
نفير خفيفٌ نَاءٍ مثل رايات مبهمة
منشورة من بعيد تتعذَّر رُؤْية ألوانها ...
نفير مرتعش ، عَجَاجٌ محبوسٌ حيث يتوقَّف الليل ،
عَجَاجٌ من ذهب محبوس في قعر الرؤية ...
عربة تُصدر صريراً نظيفاً ، باخرةٌ تُصَفِّرُ ،
رافعة تشرعُ في الدَّوَران في أذُنيَّ ،
سُعالُ جافٌ ، خَبرٌ عَمَّنْ يُغادرُ المنزل ،
قشعريرة صباحيَّة خفيفة في غمرة الابتهاج بالحياة ،
قهقهة مباغتة مؤرِّقة ، لا أدرى كيَف ، من ضباب خارجى ،

متعلِّمة خياطة مُتَّجهة إلى مَا هُو أسْوَأ من الإحساس بالصباح ،

عاملٌ مسلولٌ محطَّمٌ محروم من أن يكون سعيداً

فى هذه الساعة ذات الحيويّة التى لا يمكن تفاديها ،

والتى رونق الأشياء فيها ناعم ، حقيقى وجذَّاب ،

والجدران نديّة لدى لمسها باليد ،

والبيوتُ هنا وهناك تَفْركُ أعيناً ذات ستائر بيضاء ...

كل فجر ستار يهتز ،

ينعش أوهام وذكريات روحى التائهة ، داخل

قلبي الخالى من الروح الوبائية ،

داخل قلبى المتعب المحجَّب ...

(...)

(...) والكل آخذٌ طريقَهُ

نحو الساعة المفَعمة ضوءاً حين تفتح المتاجر أجفانها وضجيج مرور عربة قطار أحِسٌ أنَا بشمس شعثاء .

دُوَار منتصف النهار المسيَّج بَأنواع الدُّوَار

– شمس على القمم شمس [....] رؤيتى المثلومة ،

شـمـس طاحـونة الهـواء المتـوقّـفـة في ذاكـرتي اليابسـة ،

شمس البريق المضبَّب والثابت لوعيي بالحياة .

ضـجيج حـركـة مرور عـربة قطار سيارات أحس الشمس شـارعاً ،

طارات براميل ، تراماً ، دكاناً ، شـارعاً ، واجـهات تنانير ، عيوناً

بسرعة تخترق قضبان سكّة الحديد الشارعَ عبورَ الشـارع

تخترق الطوارات دكاكين « Perdôo » الشـارع

الشـارع المتجوِّل فوقي أيضـاً يتجوَّل في الشـارع فوقي

كل مرايا دكاكين الـ هنا داخل دكاكين الـ هنا ك

سـرعة السـيارات مقلوبة في المرايا المائلة لواجـهات المتاجر ،

الأرض من فـوق الشّـمس تحت الأقـدام الشـارع يسقي ورداً في السلّة

مـاضـيٌ الشـارع مـرتـعِشٌ والشـاحنة الشـارع لا أتذكرني شـارعاً [1] .

أنا الرأس المائل في مركز وعيي بذاتي

شـارعٌ بدون إمكانية العثور على مـجـرَّد إحسـاس بالشـارع شـارعٌ ، كل مـرَّة شـارعٌ إلى الخلف شـارع ، إلى الأمام تحت قدميَّ

شـارع فى X فى Y فى Z بين ذارعيَّ

شـارع من خـلال نظَّارة عـينى الوحـيدة مـصـنوعةً دوائر سينمائية مصـغّرة ،

مشـكالاً لانحناءات قُزَحية واضـحة تغدو شـارعاً .

ثَمِلٌ أنا بالشـارع وبإحسـاسـى ورؤيتـي وسـماعى كل شـئ فى نفس الوقت .

لديَّ خـفـقـان فى الصـُّـدغين لتـرنُّحي مـا بـين هذه الجهة وتلك .

....

....

أطوى الأيام كلها أطوى زوايا كافَّة الشوارع .

ودائماً حينما أفكر فى شئ أفكر فى الآن نفسه فى شئ آخر .

لاَ أعرف الإذعان إن لم يكن لدافع وراثى [2] ،

ومـا لـم أكن طـريح الفـراش لَديَّ دائمـاً مـبـرِّرات للسفر .

من سطوح مقاهى المدن المتاحة للمخيلة .

أراقب الحياة التى تمر ، أتابعها من دون أن
أتحرَّك ،

إليها أنتمى بدون أن أخرج مجرد إشارة من جيبى

أو أدوِّن ملاحظةً عمَّا رأيتُ لكى أتظاهر فيما بعد
بما رأيت .

فى السيارة الصفراء تمرُّ المرأة النهائية لأحدهم

وأنا بجانبها أسير من غير أن تعلم هى ،

يلتقيان وفق صدفة مدبَّرة على الطوار المجاور ،

لكن من قبل أن يلتقيا كنت قد سبقتهما إلى هناك .

مَا مِن وسيلة تجنبهما اللقاء بى ،

ما مِنْ طريقة تمنعنى من أن أوجد فى كل الجهات .

كل امتيازى هنا

(براءة اختراع ، بدون ضمانة من الله ، آه يا
روحى)

أشهد كُلَّ شئ على نحو نهائى

مَا منْ حلي نساءٍ لَمْ أشترها أنا ولأجلى

ما مِنْ مَوعد أعطي إلاَّ وأنَا مانِحهُ بطريقة مَّا .

ما من فحوى كلام إلاَّ وهو عائد مصادفة إليَّ .

ما من جرس قُرِعَ فى لشبونة منذ ثلاثين عاماً ، أو

ليلة أوبرا في سان كارلوس منذ خمسين عاماً ، إلاَّ وهي احتفاء غزليٌّ مُوجَّهٌ إليَّ .

لقد رَبَّتْني المخيلة

على يدها تَمَّتْ دائماً أسفارى ،

بواسطتها دائماً أحببتُ ، كرهتُ ، تكلّمتُ وفكّرت ،

ولجميع الأيام هذه النافذة من أمام

جميع الساعات ، على هذا النحو ، تبدو ساعاتي .

....

....

أستلقي بكل قامتى على حياتى برُمَّتها

جاعلاً شراهةَ العيش تزأر بداخلى ...

لا توجد فى العالم كُلِّه إشاراتُ مسرَّة تُعادلُ

الفرح العجيب الذى لاَ يملكُ طريقة أخرى للتعبير عنه سوى أن يتمرَّغ على الأرض فوق النباتات ويمتزج بالطين إلى حَدِّ تلويث بدلته وشعره ...

مَامِنْ أشعارٍ يمكن أن تعبِّر عن ذلك ...

لننزع (...) النبات ، ولنعضها وعندئذ ستفهموننى ،

ستفهمون بالكامل ما أعبِّرُ عنه ناقصا .

إنَّ سُعارى من أجل أن أكون جِذْراً

يلاحق أحاسيسى مثل نسغ من الداخل ...

أريد أن أمتلك كل الحواس ، حتى الذكاء ،

حَتَّى المخيِّلة والكبح

التصقى بجلدى كى أستطيع التمرُّغ عميقاً داخل الأرض الخشنة ،

شاعراً أكثر فأكثر بصلابتها وخشونتها .

لن أكون مسروراً إلاَّ إذا كان جَسدي هو روحى ...

هكذا كل الشموس ، كل الرياح ، وكل الأمطار

سأُحِسُّ بها وِفْق رغبتى وحدها ...

ولأن ذلك لا يمكن أن يحدث لى أيْأسُ وأتسعَّر ،

تستبدُّ بى الرغبة فى أن أكون قادراً على تمزيق بدلتى بأسنانى وفى أن تكون لى مخالب أسَد قوية لأسلخ جسدى إلى أن يسيل الدم . يسيل ، يسيل ، ويسيل ...

أتعذَّب لأن هذا عبث كله

كأنَّ أحَداً يخافنى

يخاف إحساسى العدوانى تجاه القدر تجاه الله ،

الإحـساس المتـولد من كـوننا نتطلع إلى مـا لا يوصف ،

فندرك حينئذ ، فجأة ، ضعفنا وضآلتنا

....

....

كل الأصباح هي مُطلق الصبح وهي الحياة بِرُمَّتها

كل الأفجار تبزغ من نفس المكان :

من اللانهائي ...

مباهج كل الطيور تنطلق من نفس الحنجرة ،

ارتعاشات كل الأوراق تصدر من الشجرة ذاتها ،

وكل الذين ينهضون مبكراً إلى أعمالهم

يمضون من نفس البيت إلى نفس المَصْنَع عبر نفس الطريق ...

دُوري أيّتها الكرة الهائلة ، يا مُحتَشَد الأوعاء ، أيتها الأرض

دوري ، برصاصٍ تحت الشموس ، مصبحةً ، مُمْسيةً ، مُلْيلة ،

دورى فى الفضاء المجرَّد ، فى الليل المضاء سيِّئاً
بحق ،

دورى و (...)

أُحِسُّ سرعةَ دوران الأرض فى رأسى ،

وجميع البلدان والأجناس بداخلى تدور ،

أيها القانط الطارد [3] ، ياسُعار المضيٍّ عبر الأجواء
حتى النجوم ،

أضرب بسياطك دواخل جمجمتى ،

ضع ضمادات ٍمنْ دبابيس على كل مناطق الوعى
فى جسدى ،

اجعلني أنهضُ أَلَف مَرَّة وأتجه نحو المجرد ،

نحو ما لا وجود له ، هنالك من دون أى تحديد ،

للهدف اللامرئى لجميع الجهات التى لا أوجد فيها ،
وفى الوقت نفسه .

أوه ، ألاَّ أتوقَّف حتى لكى أمشى ،

ألاَّ أنَام ولو وَاقفاً ،

لا مستيقظاً ولا نائماً ،

لا هنا ولا فى أىٍّ مكان آخر ،

أن أجِدَ حَلاً لمعادلة هذا القلق المتناسل ،

أن أعرف أين أكون لأستطيع أن أكون فى كل مكان

أن أعرف أين أنام لأتجوَّل فى كل الشوارع ،

أن أعرف أين (...)

Ho - ho - ho - ho - ho - ho - ho

Ho - Ho - Ho - Ho - Ho - Ho - Ho

Ho - Ho - Ho - Ho - Ho - Ho - Ho

Ho - Ho - Ho - Ho - Ho - Ho - Ho

هِى

وَثبةٌ مجنَّحة أعْلو بها فوق كل الأشياء ،

وثبةٌ متفجرة أنْسابُ بها تحت كل الأشياء

وثبة مُجنَّحة متفجِّرة مِنِّى بدافع من الأشياء كلها ...

هُوپْ – لاَ من فوق الأشجار ، هُوپْ – لاَ من تحت البرك ،

هُوپ – لاَ لَصْق الحيطان ، هُوپ – لاَ محتكّاً بالجذوع ،

هُوپ – لاَ فى الهواء ، هُوپْ – لاَ فى الريح ، هُوپْ – لاَ فى الشواطئ

وفق سرعة متنامية ، عنيفة ، ملْحاح ، هُوپْ – لاَهُوپ – لاَهُوپْ – لاَ ....

وثبة حلُولية أنفذ بها داخل الأشياء كلها ،

وثبة قوية إلى دواخل كل الطاقات ،

وثبة مِنّى فى قلب الفحم المشتعل للمصباح المتقد

لكل الطاقات المستهلكة

وثبتى [.....] ،

وثبة متفجرة مثل قنبلة متشظية ،

وثبة متفجرة من كل الجهات فى وقت واحد ،

وثبة فوق الفضاء ، وثبة فوق الزمن ،

شقلبة ، حصان نيو – إلكترونى ، نظام شمسى مصغَّر ،

داخل حركة المكابس ، خارج دوران المحرِّك ،

داخل المكابِس متحوِّلاً إلى سُرعة مجرَّدة ومجنونة ،

أتحرَّكُ أنا ، ذهابا إياباً ، على إيقاع من حديد

وسرعة ، جنون ، هيجان مكبوح ،

مشدوداً إلى أثر كُلِّ المُقَاوِدِ أدُورُ داخل ساعات مذهلة ،

والكون كله يَصِرُّ ، يتدثَّر بالنجوم ، ثم يتشوَّهُ بداخلى .

Ho - ho - ho - ho - ho...

تزداد السرعة أكثر فأكثر ، والروح تتخطَّى الجسد كُلَّ مرة ،

تسبق الفكرة الخاصَّةَ السريعَة ذاتها للجسد المقذوف ،

والروح من وراء الجسد ، ظلاً ، شرارة ،

He - La - ho - ho... HeLa h ho...

كل طاقة هى نفسها فى كل مكان والطبيعة هى نفس الطبيعة ...

نُسغ نُسِغ الأشجار هو نفس الطاقة التى تُحرِّك
عجلات القاطرات ، عجلات التِّرام ، محركّات
الدِّيزل ، وعربة مجرورة بالبغال أو بالبنزين

هى عربة مجرورة دوماً بنفس الشيء .

إنَّه لَسُعار حُلُولى أنْ أحسَّ فى داخلى برُعْبٍ ،
عَبْر حواسى الفوَّارة كلها . عبر كُلِّ مَسامِّى الداخنة ،
بأنَّ كل شئ هو سرعة واحدة ، طاقة واحدة ، خطٌ إلاهى واحد
لا نهائيٌّ محبوسٌ يهمس من جهة لأخرى بعنفِ سُرْعةٍ مجنونة ...

Ho - ho - ho - ho - ho - ho - ho

Ho - Ho - Ho - Ho - Ho - Ho - Ho

Ho - Ho - Ho - Ho - Ho - Ho - Ho

Ho - Ho - Ho - Ho - Ho - Ho - Ho

مَرْحَى ، مرحَى [4] ، لتحي وحدة السرعة فى كل شئ !
مَرْحَى ، مَرْحَى ، لتحى مساواة كل الأشياء وهى ترتفع بسرعة !
مَرْحَى ، مَرْحَى ، لتحى آلة الكون الكبرى

مَرْحَى ، فأنتُنَّ شئ واحد أيّتها الأشجار ، الآلات ، القوانين ،

مَرْحَى ، أنتنَّ الشئ نفسه أيتها اليرقات ، المكابس ، الأفكار المجردة ،

نفس النُّسخ يملؤكنَّ ، نفس النسخ يحوِّلكُنَّ ،

شئ واحد أنتنَّ ، وما تبقَّى خارجى وزائف ،

ماتبقَّى فَضْلة جامدة تبقى عالقة بعينىَّ المشلولتين ،

لَكنْ ليس فى أعصابى محرِّك تفجير بالزيوت الثقيلة أو الخفيفة ،

ليس فى أعصابي كل الآلات ، كُلُّ التُّروس .

فى أعصابى قاطرة ، ترام ، سيَّارة ، حصّادة ميكانيكيّة

فى أعصابى آلة بحرية ، ديزل ، نصف ديزل كامپل ،

فى أعصابى جَهازٌ كامل بالبخار ، بالغاز ، الكازوال ، الكهرباء ،

آلة كونية مشغّلة بِأحزمة اللحظات كُلِّها .

أيها القطار تحطَّم على مِصَدِّ السِّكَّةِ الزائغة !

أيتها الباخرة أبحري مستقيمة جنب الرصيف ثم اطلدمى لَدى اللّقاء به !

أيتها السيارة المسُوقة من جنون الكَونِ كُلّه عَجِّلى مسرعة

عبر الهاويات كلها

ثم تحطّمى ، trz ! تناثري فى قاع قلبى !

أشياء القذائف كلها لى !

لى كُلُّ الاتجاهات

كل الأشياء التى تتجاوز أنظار كل سرعةٍ لى !

هيا اضربوني ، اخترقونى ، اسبقونى !

فأنا الذى يضرب ، الذى يخترق ، الذى يسبق !

وفى دائرتى ينغلق سُعار كل الاندفاعات !

HeLa - Loho أيها القطار ، السيارة ، يا طيّارة ، يا ضجرى ،

أيتها السرعة انفذى إلى داخل كل الأفكار ،

ارتطمى بجميع الأحلام ثم حَطّميهن ،

اسحقي كل المثاليين الإنسانويين والنافعين ،

دُوسى كل العواطف العادية ، المحتشمة ، المطيعة ،

انْطحى لدى دوران مُحرِّكك المدوَّخ والثقيل

أجسام الفلسفات كلها ، مجازات كل القصائد ،

مزقيهنَّ جميعاً ولتبقَىْ وحدك أنت ، مقوداً مجرّداً في الأجواء

سيِّداً أعلى للساعة الأوربية ، حرارة معدنية خالصة .

هيّا ، لتكُنْ هذه الوثبة ممتّدةً لا نهاية لها حتى فى الله ذاته !

هَيًّا وَلأبْقَ أنا نفسى وراء الوثبة ، لأبقَ

مَجْروراً فى مؤخرة القطار ، معصوراً ، مفرغاً ، ضائعاً ،

أنا الفقير ، جسدى وروحى بَلَغا قمة ارتفاعى ،

حيث أتطلع إلى يوتوبيات مجاوزة للكون ، أتطلع إلى أن

أتْرُك الله من ورائى مثل صُوَّةِ الألْفِ

وَأن أسْلم (....)

تؤلمني المخيلة ، لا أدرى كيف ، لكنْ عنها يصدر الألم ،

من أعالى السماء تنحدر الشمس فى دواخلى .

فى الأفق الأزرق وفى أعصابى يبدأ الإمساء .

هَيَّا ، أيتها الوثبة ، إلى أيِّ كائن آخر ستحولينني ؟

أنا الذى أردتُ سريعاً ، شَرِهاً ، نَهِماً للطَّاقة المجرَّدة

التهامَ العالم ، احتساءَهُ ، خَدْشَه وسَلْخَه ،

أنا الذى لن يشفي غليلى سوى أن أدعس الكون تحت قدميَّ ،

أن أدعس ، أدعس ، أدعس حتَّى أفقد الإحساس ...

أنا الذى أحسُّ أن كل ما رغبت فيه قد ظل خارج إمكان ما تخيَّلتُ ،

وأنَّني رغم اشتهائى كُلَّ شئ ، ظَلَّ كُلُّ شئ ينقصني .

هى وثبة مفكَّكة فوق كل القمَمِ ،

وثبة منحلَّة تحت كُلِّ الآبار ،

وثبةُ طيران ، غارةُ سهم ، وثبةُ فكر - بَرْقٌ ،

وثبةٌ أنا ، وثبةٌ أنا ، وثبة الكَوْنِ – أنا .

Helaho ho - o - o - o - o - o ......

كينونتي المطّاط ، زُنْبُركٌ ، مِسَلّةٌ ، ارتجاج ...

أنْ أحِسَّ كُلَّ شيءٍ بكل الوسائل ،

أن أملك الآراء كلها ،

أن أكون صريحاً ، أناقض نفسي في كل آن

أن أغيظ من أشاء بوحي من الحرية الكاملة للروح

وأن أحب الأشياء مثل الله .

أنا الذى أعتبرني أخاً لشجرة أكثر من كونى أخاً لعَامل ،

أنا الذى أحسُّ الألم المتخيَّل للبحر وهو يجلد الشُّطآن

أكثر من إحساسى بالألم الفعلى للأطفال المجلودين

(أوه ، كم هو زائف هذا الذى أقول ، أيتها المخلوقات المسكينة المجلودة – لكن لماذا تنقلب أحاسيسى إلى النقيض بهذه السرعة ؟)

أنا ، فى النهاية ، حوار متواصل ،

كلام جهير لاَ مَفْهوم ، أنا ليل سامق فى برج ،

عندما ، فى كَسَل ، تهتز الأبراج من دون أن تقرعها يد ويُعرَفَ بالكاد أن ثمة حياةً يمكن أن تُحيا للغد .

أنا ، فى آخَر المَطاف ، حرفيا أنا ،

ومجازيًّا كذلك ،

أنا الشاعر الحسَّوي [5] الذى أرسلته الصُّدفة

إلى الشرائع اللاغبار عليها للحياة ،

أنا مُدَخِّن السجائر المحترف

وَمُدخِّن الأفيون ، متعاطى الأبسنط [6] الذى

يفضل فى النهاية التفكير فى تدخين الأفيون على تدخينه بالفعل .

ويميل إلى النظر إلى الأبسنط أكثر من ميله إلى احتسائه ...

أنا ، هذا الوضيع الأرفع من دُونِ أرْشيف للروح ،

ولا شخصية ذات قيمة معترف بها ،

أنا البحَّاثة الجليل فى توافه الأشياء ،

قادر على الذهاب للعيش فى سيبيريا لمجرد الاشمئزاز من ذلك ،

وأعلن أنَّه ليس مُهمّاً أنَّ الوطن لا يهمُّنى

لأنَّنى لا أملك جذراً كالشجرة ، وإذن ، فأنا من غير جُذُورٍ أحيا

أنَا الَّذى أحِسُّ مراراً أنَّنى واقعي تماماً مثل أيَّة استعارة ،

مثل عبارة خَطَّها مريض فى كتاب عَثَرتْ عليه فتاة فى سطيحة ، أو لعبة شطرنج على متن سفينة محيطات ،

أنا المربية التى تجرُّ عربة الرضيع فى كل الحدائق العمومية ،

أنا الحارس الذى يحملق فيها متوقِّفا خلف أشجار الحَوْر ،

أنا الرضيع فى عربته يطلق للاوعيه النورانى إشارات بعقد من الجلاجل ،

أنا المشهد القائم وَرَاءَ ذلك كله ، سَلامُ المدن

المُصفَّى عبر أشجار الحديقة ،

أنا مَنْ ينتظِرُ الجميع فى منزله ،

أنا هو أولائك الجميع الموجودون الآن فى الشارع ،

أنا ذلك الذى لا يعرفونه عن أنفسهم ،

أنا ، ذلك الشئ الذى تفكِّر فيه أنتَ فيجعلك تبتسم ،

أنا المتناقض ، الخيالى ، الثقيل ، الرغوة ،

اللافتة المُلَصقَةُ منذ قليل ، أرداف الفرنسيات ، نظرة القسيس ،

أنا الميدان حيث تلتقي الأزقة ، وينام السائقون فوق سياراتهم ،

نَدْبةُ العَريف المتجهِّم ،

أنا الحَزَازُ على عُنُقِ المعلِّم العائد مريضاً إلى المنزل ،

الفنجان المكسور المقبض الذى اعتاد ذلك الطفل الميت أن يشرب دائما منه .

(وكل ذلك ينفخ قلب الأم ويخترقها ...)

أنا درس الإملاء الفرنسى للصغيرة التى تقلب رباط الجوارب ،

أنا القدمان المتحاكّتان على ضوء الثريا تحت البريدج ،

أنا الرسالة المخبوءة ، دفء المنديل ، النافذة المفتوحة على الشرفة ،

مدخل « المصلحة » حيث الخادم تُنَاجى رغبات ابن عَمِّها ،

أنا ذلك الحثالة خوصي الذى وعد بالمجئ ولم يجئ

مع أننا كنَّا نُدبِّر له مكيدة مازحة ...

أنا كل ذلك وما تبقى من العالم كُلِّه علاوةً على ذلك ...

كثير من الأشياء ، أنا ، الأبواب التى تُفَتَحُ ، وما بسببه تُفتح الأبواب ،

وتلك الأشياء صانعةُ الأيدى التى تفتح الأبواب ...

أنا الفشل الفطري لكل طرق التعبير ،

أنا استحالة التعبير عن جميع الإحساسات ،

ولا يوجد فى أية مقبرة قَبْرٌ لأخ هذا كله (7) ،

وما يبدو بدون معنى دائماً ينطوى على معنى معين ...

أجل ، أنا المهندس البحري المؤمن بالخرافات مثل عَرَّابة قرويَّة

أستعمل نظَّارة عين واحدة حتَّى أبدو شبيها بالفكرة الواقعية

التى أكَوِّنُها عن ذاتى ،

وأمضى ثلاث ساعات كاملة فى ارتداء ثيابى

وحدها

دون أن أجد ذلك طبيعياً ،

بل أجده ميتافيزيقياً تماماً ، وإذا أحدهم طرق بابى أغْضَبُ

لاَ لأنَّه يفسد عليَّ ربطة العنق ، بل لأنَّه يذكِّرنى أنَّ الحياة مستمرة ...

أجل ، أنا من إليه تُوجَّه ، فى النهاية ، الرسائل المختومة بالشمع الأحمر ،

أنا صندوق الأحرف البارزة المستهلكة ،

ترنيمة الأصوات التى لن نسمعها أبداً من جديد

الله يحفظ كل ذلك فى الغيب ، نحن نُحِسُّه من حين لآخر ،

والحياة تغدو فجأة ثقيلة وتَحُلُّ برودة شديدة أقرب إلينا مِنَ الجسد .

إيه بريجيدا ، وابنة عَمِّ خالتى ،

الجنرال الذى كانتا تتحدثان عنه – جنرالاً كَانَ عندما كانتا صغيرتين –

وكانت الحياة حرباً أهلية فى كل مكان ...

لتحي الميلودراما التى بكت فيها ماركو

دون نظـام تسـقط الأوراق اليـابسـة علـى الأرض ،

لكنَّ الثابت أنَّ الخريف دائماً هو الخريف

والشتاء بعده آتٍ لا مناصَ منه

ولأجل الحياة يوجد طريق واحد هو الحياة ...

ذلك العجوز التافه الذى عرف الرومانطيقيين ،

ذلك المنشـور السـيـاسى من عـصـر الثـورات الدستورية ،

والألم الذى يخلِّفـه ذلك كُلُّه من غـيـر أن يُعـرف السبب

ولا أن تـجـد دَواعٍ للبكاء غـيـر الإحـسـاس بالبكاء لذاته .

كُلُّ العشاق فى روحى تبادلوا القبل ،

كُلُّ الصعاليك فوقى ناموا لبضع لحظات ،

كل المُهانين على ذراعى أراحُوا قليلاً رؤوسهم على
شوارع ذراعي مَرَّ جميع الشيوخ والمرضى
ولي أنا بَاحَ كُلُّ القتلة بأخصِّ أسرارهم .

(تلك التى توحى ابتسامتها بسلام أفتقده ،

وفى إغفاءة عينيها ثمة مشهد لهولندا

بنسائها المحجَّبات بالكتّان

وكل المجهود اليومى لشعب مُسَالم نظيف ...

تلك التى نسيت الخاتم فوق خزانة النوم

والشريط مُطلاً من الدُّرج ،

الشريطِ الوردى الذى لا أحببه لِلَوْنه بل لِعُلوقِه
بالدُّرج

مثلما لا أحبُّ الحياة بل أحِبُّ الإحساس بها
فحسب ...

أن أنام مثل كلب ضال فى الطريق ، تحت الشمس ،

بعيداً نهائياً عما تبقَّى من الكون ،

وأن تَمَّر من فوقى شتى العربات)

ضاجعتُ كل المشاعر

كنتُ قَوَّاد جميع الانفعالات ،

كل الأحاسيس الصدفويّة ضَيَّفتنى على موائد الآخرين ،

غازلتُ كل إشارة مؤدّية إلى فعل اللذة ،

ووضعت يدى فى يد كل شهوات الرحيل .

يا للحُمَّى الشاسعة لهذه اللحظات !

يا لَقَلق مَصْهر الانفعالات !

السُّعار ، الزَّبد ، الشساعة التى لاَ يسعُها منديلى ،

الكلبة النابحة فى الليل ،

بركة الضيعة الريفية تحوم حول أرَقى

والغابة حيث كُنَّا نتنزَّة فى العشية ، والوردة ،

الضفيرة اللامبالية ، الطحلب ، أشجار الصَّنوبر ،

وكل السُّعار الناجم عن عدم احتواء كل ذلك ، عن عدم الإمساك به ،

أوهٍ يا جوع الأشياء المجرَّد ، حماسة اللحظات العاجزة ،

التهتُّك الفكرى للشعور بالحياة !

أنْ أنال كُلَّ شئ بالكفاف الإلاهى –

السهاد ، الرضا ، الإشعارات ،

الأشياء الجميلة للحياة –

الموهبة ، العفة ، العفو ،

الميل إلى اصطحاب الآخرين إلى البيت

وضعية المسافر ، امتياز الركُّوُبِ باكراً للحصول على مقعد ،

فائدةُ السفر إلى مكان آخر ،

لكن ينقصنى شئ ، شئ ما ، كأس ، نسيم ، عبارة ،

والحياة إنما توجعنا كلما أبدعنا واستمتعنا بها أكثر .

أن أستطيع الضحك ، الضحك ، الضحك بإشراق

الضحك مثل كُوبٍ يُراق ،

مجنوناً تماماً لمجرد الإحساس ،

ممزّقاً بفعل احتكاكي مع الأشياء ،

مَجْرُوح الفَمِ من جرّاء عَضّي الأشياء ،

بالأظافر مُدماةً لشدّة ما اقتلعتُ من أشياء

وَبَعْدَئذٍ هَبُوني أية زنزانة تشاؤون

سأتذكر الحياة .

22 ماي 1916 - 10 ابريل 1923

طبكيرية

لا أساوى شيئاً

ولن أكون أبداً لا شئ

لا أستطيع أن أرغب فى أن أكون لا شئ

عَدَا هذا ، أملك كل أحلام العالم فى دخيلتى .

نوافذ غرفتى ،

غرفة واحد من هؤلاء الملايين فى العالم لا أحد

يعرف من هو

(وحتى لو عُرف ، ماذا سَيُعرف عنه ؟)

نوافذ مُطلة على غوامض شارع يجتازه

الناس باستمرار ،

تطل على شارع يصعب على الفكر ارتياده ،

واقعي ، واقعى حتى الاستحالة ، واضح بطريقة لا تخطر على البال ،

بغوامض الأشياء تحت الأحجار والكائنات ،

بغوامض الموت الذى يُخزِّز

الحيطان ويزرع البياض فى شعور الرجال ،

بالمصير الذى يقود عربة الكل فى طريق
اللاشئ .

اليوم أنا مهزوم كما لو كنتُ أعرف الحقيقة ،
صاحٍ كما لو كنت على وشك الموت .
لا أخوة مع الأشياء لديَّ أكثر من
أخوَّة وداع فيما هذا المنزل وذلك الجانب من
الشارع
يَغْدُوان صَفّاً من عربات قطار ،
صفَّارةً ممتدة داخل جمجمتى ،
ورجّةً فى أعصابى وطقطقةً
فى عظامى لحظة الإقلاع ،
أنا اليوم مُبَلبل الخاطر ، كمن فكَّر فَوَجد ثم نسي
كل شئ ،
أنا اليوم موزَّعٌ بين انحيازى
للطبكيريّة المقابلة لى ، كشئ واقعى من الخارج
وبين الإحساس بأنَّ كل شئ هو مجرّد حلم ،
بوصفه شيئاً واقعياً من الداخل .
أخفقتُ فى كُلِّ شئ .

وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ عندى أىُّ هدف من أىِّ نوع فقد بَاتَ
كُلُّ شيء غير ذى قيمة لدىّ .

ما لقَّنُونى إياه

قَذَفْتُ به من النافذة الخلفية .

لقد ذهبتُ إلى الحقول تحدونى غاياتٌ كبيرة ،

وجدت أشجاراً وأعشاباً فحسب

والناس الذين كانوا هناك كانوا مثل الآخرين .

أتركُ النافذة مفتوحة وأجلس على كرسى . فيمَ
ينبغى أن أفكِّر ؟

ماذا أستطيع أن أعرف عَمَّا سأكون ، أنا الذى لا
أعرف من أكون ؟

أن أكون ما أفكِّر فيه ؟ أفكِّر أن أكون أشياء عديدة !

وهناك كثيرون يفكرون أن يكونوا ذلك الشئ

نفسه الذى لا يمكن للكثيرين أن يكونوه .

أعبقرىٌ أنا ؟ فى هذه اللحظة ثمة

مئة ألف دماغ تومنُ مثلى بأحلام عبقرية ،

ومن يدرى هل سيحفظ التاريخ حُلُما واحداً منها ،

وهل سيبقى غير ازَّبَل للعديد من المغزوات
المستقبلية .

كَلاَّ . لا أومن بنفسى

أليس ثمَّتَ فى كثير من غرف السطوح وغيرها
نُبغاءُ لأنفسهم فى هذه الساعة يحملون ؟

كم من تطلُّعات رفيعة ونبيلة وصاحية

- إن كانت حَقّاً رفيعة ونبيلة وصاحية -

رُبما قابلة للتحقيق ،

لن ترى أبداً نور الشمس الفعلية ولن تصل إلى
آذان الناس ؟

العالم مخلوقٌ لمَنْ وُلدوا كى يمتلكوه

لا لمن يحلم بأنَّه قادر على امتلاكه ، ولو

كان على صواب .

لقد حلمتُ بأكثر مما حلم به نابليون نفسه .

ضَمَمْتُ إلى صدرى المفترض إنسانيات

أكثر مما ضَمَّ المسيح .

شيَّدُت فى السر فلسفاتٍ أكثر من كل ما كتب

أيٌّ كانط .

لكن كنت وسأكون دائماً مجرَّد ساكن غرفة فى
سطح

ولو لم أعشْ فيها .

سأبقى دائماً مَنْ لم يخلق لذلك

سأبقى دائماً ذلك الذى امتلك بعض المزايا .

سأكون دائماً ذلك الذى توقَّع أن يفتحوا له باباً فى جدار بلا باب ،

والذى غَنَّى ترنيمة اللانهائى فى خُمِّ الدجاج

الذى سمع صوت الله فى بئر مغلقة .

أَوَ أومِنُ بنفسى ؟ لاَ بنَفْسِى وَلاَ بأىِّ شيء .

لتسكب الطبيعة شمسها ومطرها

فوق رأسى المتَّقد ولتكنس ريحُها شعرى

وما تبقّى ليأت إذًا كان لابد أن يأتي

أوْلاَ يأتى أبداً .

عبيدٌ قلبيُّون للنجوم نحن ،

نفتح العالم قبل نهوضنا من السرير

نستيقظ فإذا هو صَفيقٌ

نخرج إلى الشارع فإذا هو غريب عنا ،

وهو الأرض بأكملها والنظام الشمسى ودرب التبانة وما لا يحدَّد .

(كُلِى الشوكولاطة ، ياصغيرة .

كُلي الشوكولاطة !

سَتَرَيْن لا توجد ميتافيزيقا فى العالم تُضَاهى الشوكولاطة ،

سَتَرَيْنَ كُلَّ الديانات لا تُعلِّم أكثر مما تُعلِّمه المقشدة .

كُلِى ، أيتها الصغيرة القذرة ، كُلى !

ليتنى أستطيع أكل الشوكولاطة بمثل اليقين الذى به تَأكُلينَها !

غير أننى أفكِّر لدى نزع اللُّفافة الفضية التى

هى ورقة من قصدير ،

فى أن أقذف إلى الأرض بكل شئ ، مثلما فعلتُ بحياتى نفسها)

لكن تبقى على الأقل مرارةُ مالن أكونَهُ أبداً ،

الخط السريع لهذه الأشعار ،

بوابة منكسرة على المستحيل .

إننى على الأقل أمحض نفسى ازْدراء بلا دموع ،

نبيلٌ على الأقل بفعل الحركة الجنتلمانية التى أرمى بها فى تَيَّار الأشياء

الثياب القذرة التى هى أنا

لأبقى في بيتي من غير قميص

(أنت التي تواسين وليس لك وجود ، ولذلك تواسين ،

إلاهةً يونانية كنت ، مثل تمثال وُهب الحياة ،

أو نبيلة رومانية ، مستحيلة ومشؤومة ،

أميرة تروبادوريين ، مركيزة زاهية من القرن الثامن عشر ،

لطيفة جداً وملوَّنة ، ذات لباس مكشوف وبعيدة ،

عاهرة شهيرة من زمن أجدادنا ، أو من شئ حديث

لا أستطيع حتى أن أتخيَّلهُ ،

كوني كُلَّ ذلك كيفما كان ، وإذا كان هذا هو الإلهام فلتلهميني !

قلبي دَلْوٌ مقلوب .

مثل محضّري الأرواح

أستحضر روحي فلا يظهر شئ .

أدنو من النافذة وأنظر إلى الشارع بوضوح مطلق .

أرى المتاجر ، الرصيف ، أرى السيارات التي تمر ،

أرى الأحياء بملابسهم يتقاطعون ،

أرى الكلاب الموجودة بدورها ،

وكل هذا يُثقلُ عليَّ مثْلَ حكم بالنفى ،

كل هذا ، لا يمتُّ بصلة إليَّ ، مِثْلَ كل شىء .)

لقد عشتُ ، درستُ ، أحببتُ بل وآمنت حَتىً .

واليوم لا يوجد متسوِّل لا أحسده على حاله ، فقط لأنَّهُ ليس أنا .

فى كل شخص أرى الأسمال ، القرحة والكذب .

وأفكر : رُبَّما ماعشتَ قط ، ولا أحببتَ ، ولا

آمنت

(إذْ منَ الممكن أن نغيِّر وَاقعَ هَذا كُلِّه بدون

أن نَفْعَلَ أىَّ شىء منه) ،

رُبَّما كنتَ موجوداً بالكاد مثل سحلية بَتَروا لَهَا الذَّنَب

فالذنَب وحده ينطُّ وَينطُّ ، مفْصولاً عن الجسد .

فعلتُ بنفسى مالم أكن أعرفه

وما كان بإمكانى أن أفعله بى لم أفعله

القناع الذى ارتديُته لم يكن قناعى الأفضل .

وَفَوْراً حسبونى ذلك الذى لم أكنه ، لم أفنِّد حسبانهم وضيَّعتُ نفسى .

عندما أردتُ نزع القناع ،

التصق بوجهى ،

عندما نظرتُ فى المرآة ،

كنتُ قد شختُ

ثملاً كنتُ ، لم أعُدْ أعرف وَضْعَ القناع الذى لم أنزعهُ

طَوَّحتُ به ،

وفى خزانة الثياب نمتُ

مثل كلب معتنى به

لكونه غيرَ مؤذ .

لسوف أكتب هذه الحكاية لأبرهن على نبلي .

ياجوهر موسيقى أشعارى اللامجدية

هل أقْدر أن ألقاك كشئ يخصُّنى ، كشيء أنا صانِعه .

بَدَلاً منَ أبْقَى دائمًا قبالة الطبكيرية :

حيث أدوس وعيى بأننى موجود

مثل بساط يتعثر فوقه سكير

أو حصير سرقه غجر وهو لا يساوى حبَّة خردل .

لكن صاحب الطبكيرية ظهر فى الباب ولبث

واقفاً هناك .

أنظُر إليـه بضـيق من يحـمل رأسـاً فى وضـع غـيـر مريح

بضيق فَهْمٍ سيء للروح .

سيموتُ هو وأموتُ أنَا

هُوَ سيتركُ يافطته وَأنَا سَأخَلِّف أشعاري .

بعد حين ستتلاشى اليافطة وأشعارى ستغيب

بعد ذلك سيموت الشارع حيث كانت اليافطة

ثم تموت اللغة التى بها كتبت تلك الأشعار

فيما بعد سوف يتلاشى الكوكب السيَّار الذى حدث فيه هذا كله .

فى كواكب أخرى لمجموعات أخرى سوف تواصل كائنات شبيهة بالبشر

وضع أشياء تشبه الأشعار ،

تشبه العيش تحت يافطة متجر .

دائماً شيءٌ ما قُبالة شئ آخر

دائماً شئ لا جدوى منه تماماً مثل آخر .

دائماً ما هو مستحيل وما هو واقعي فى البلادة سواء .

دائماً سرٌ العمق أكيد مثل غوامض السطح .

دائماً هذا الشيء أو دائماً ذاك ، أوْلاَ هذا وَلاَ ذاك .

لَكنْ هناك رجل دخل الطبكيرية (ألشراء التبغ ؟)

فإذَا الواقع المعقول يَهْوِى بغتةً عليَّ مرة واحدة ،

أنتصب ، بحيويَّة ، مقتنعاً ، إنسانياً .

وأبدأ فى كتابة هذه الأبيات التى سأقول فيها العكس .

أشعل سيجارة لدى التفكير فى كتابة الأبيات ،

وأتذوَّقُ فى السيجارة حرية الانعتاق من كل أشكال التفكير .

أدَخِّن وَأتَابع الدخان كما لو أنَّه مساري الخاص

وأتلذَّذ ، فى لحظة إحساس ،

بالتحرُّر من كُلِّ التأمُّلات .

واعياً أن الميتافيزيقا إنَّما هى نتيجة لمزاج متعكِّر .

وبعد هذا كُلِّه أتراجع فوق مقعدى

وأتابع التدخين

سأتابع طالما القدر يتيح ذلك لى .

(لو تزوَّجتُ ابنةَ غَســَّالَتِى لرُبَّمـا كنتُ أصــبـحتُ سعيدا !)

أغَـادرُ مَقْـعَـدى ، مـادام الأمـر كـذلك ، أتجـه صــوب النافذة

لقد خَرَجَ الرجل من الطبكيـريّة (أوَ دَسَّ بقيَّة النقود فى جيب البنطلون ؟)

آه ، إنَّنـى أعــرفـــه ، إنه إســتــيــبــا الــذى بـــلا ميتـافيزيقا

(صاحب الطبكيرية يعود إلى باب دكانه)

مدفوعاً بغريزة إلاهيّة ، إستيبا استدار

وَلَمحنى :

حيَّانى بيده فَصِحْتُ به ! وداعاً ، إستيبا

وإذا الكون

يتشيَّدُ من جديد فى داخلى بدون مثل أعلى ولا أمل

وصاحب الطبكيرية يبتسم .

15 يناير 1928

هـــــوامـــــش II

هوامش الدراسة :

(1) محتذى العادات والتقاليد الإنجليزية .

(2) نزعة نوسطالجية مَيَّزت الشعر والغناء البرتغاليين فى بداية القرن .

(3) أقترح هذه اللفظة كمقابل لـ heteronimos المركبة من الكلمة الإغريقية heteros وتعنى « الآخر » و onuma وتعنى الاسم . وقد أطلقها پيسوا على الأسماء – المخلوقات الشعرية التى اخترعها وكتب بها أشعاراً شتى ، والتى اكتسب كل منها وجودا مستقبلاً ونداً لفرناندو پيسوا نفسه .

(4)ortonimos هى تلك الأسماء المختلفة التى تظل خارج ذات المؤلف خلافاً لـ heteronimos التى تنتمى إلى عالمه الداخلى .

(5) ولد فى لشبونة عام 1889 وفيها توفى عام 1915 . عاش حياته كلها تقريبا فى مزرعة . أعماله : حارس القطعان : 1911 - 1912 ؛ الراعى العاشق ؛ قصائد غير متاجانسة 1913 - 1915 .

(6) لم يعرف أىٌ شئ مماثل فى الإسبانية حتى مجئ جيل لوركا ونيرودا . أجل ، لقد كان هناك نثر كوميث دى لاسيرنا . فى المكسيك كانت لدينا بداية خجول ، بداية فحسب : TABALADA . سنة 1918 بزغت ، فعلياً ، القصيدة الحديثة فى اللغة الإسبانية . غير أنّ رائدها فيسنطى هويدبرو شاعر ذو نغمة مختلفة .

(7) من المستحيل حسبما يبدو ألاّ يكون پيسوا قد تعرَّف على لاربو . فالطبعة

الكاملة لـ Barnabooth هى طبعة 1913 ، أى سنة المراسلات المكثّفة لپيسوا مع ساكارنيرو . وهناك تفصيل مثير : لقد زار لاربو لشبونه عام 1926 . كَوميث دى لاسيرنا الذى كان يعيش وقتئذ فى تلك المدينة هو الذى قدَّمه للكتّاب الشبان الذين أقاموا مأدبه له . فى التعليق المخصّص لهذا الحدث فى lettre de lisbone en jaune bleu blanc يتحدّث لاربو بإطراء عن المادا نيغريرا . لكنه لا يذكُر پيسوا . ألَمْ يتعارَفا إذاً ؟ ! .

(8) ولد فى أبورطو عام 1887 وهو الشاعر الأكثر متوسطية بين الأنداد . كايبرو كان أشقر بعينين زرقاوين . كامپوس بين البياض والسمرة ، طويل ، نحيل مع مظهر أممى . أما رييس فأسمر « كامد » أقرب إلى إسبانى أو برتغالى من الجنوب . ليست الأناشيد أثره الوحيد . فمن المعروف أنه كتب نقاشا إسطيطيقيا بين ريكاردو رييس وألبارودى كامپوس . وملاحظاته النقدية حول كايبرو وكامپوس نموذج للتدقيق والغموض الإسطيطيقى . (المترجم الإسبانى) .

(9) قبل أن يتم نشر هذا الكتاب وبقية الأعمال الكاملة لپيسوا نشرت هذه الدراسة .

هوامش قصيدة نشيد بحرى :

(1) ربما يقصد إنريكى البحار . (المترجم الإسبانى) .

(2) بلدة صغيرة على الضفة اليسرى لنهر التاج ، قبالة ميناء لشبونة . (المترجم الإسبانى) .

(3) cesario verde شاعر برتغالى عاش فى النصف الثانى من القرن 19 . يعتبر أولَ من أدخل قصيدة النثر كأسلوب شعرى فى القصيدة البرتغالية الحديثة . وقَدْ أعيدَ له الاعتبار حيث اعتَبره پيسوا وجماعة أورفى قُدْوتَهم الأدبية (المترجم الإسبانى) .

(4) يقصد الإعلانات الروتينية عن دخول السفن وخروجها من الميناء (م . الإسبانى) .

هوامش قصيدة تزجية الوقت :

(1) حاولت الحفاظ على إيقاعية هذا المقطع الهذيانى الملتبس .

(2) جملة ملتبسة فى الأصل .

(3) centrifugo طارد مركزى مقابل : centripeto جاذب مركزى .

(4) Ave,Salve باللاتينية فى الأصل .

(5) الشاعر الحسوى Poeta Sensacionista وهو اسم الحركة الأدبية التى أسسها پيسوا وصديقه الشاعر البرتغالى ماريو ساكرنيرو قبيل الحرب العالمية الأولى (م . س .) وقد فضلنا ترجمة sensacionismo بحسوية بدلا

من حساسوية الشائعة ، لأنها أدل على طبيعة الفعل الشعرى المنجز .

(6) Absinto مشروب قوى كان يصنع من الشيبة واشتهر فى القرن 18 و 19.

(7) ترجمة حرفية لبيت غامض فى الأصل . (م. ع) .

هوامش قصيدة طبكيرية :

(1) فضلت الإبقاء على العنوان الأصلى بدلا من « دكان التبغ » .

فرناندو پيسوا

بطاقة كرونولوجية

1887 : الميلاد المفترض لريكاردو رييس .

1888 : 13 يونيو : ميلاد فرناندو پيسوا .

1889 : - 16 أبريل : الميلاد المفترض لألبرطو كاييرو .

- 15 أكتوبر الميلاد المفترض لألبارودى كامپوس .

1893 : موت والده .

1895 : ظهور أولى قصائده وهى رباعية مُهداة إلى أمِّه .

1896 : يسافر إلى دوربان (جنوب إفريقيا) مع أمّه وزوجها الدبلوماسى .

1896 - 1898 : الدراسة الابتدائية .

1901 : قضاء العطلة مع العائلة فِي لشبونة وهو

تلميذ فى إحدى المؤسسات الثانوية .

1902 : يكتب قصيدته الثانية (رباعيات وثلاثية) مهداة أيضا إلى أمّه .

1903 : يلتحق بجامعة الكابو .

1905 : يعود بمفرده إلى لشبونه ليستقر فى منزل جدّته لأبيه ، ثم فى منزل خالته من بعد .

1906 : يسجل نفسه فى كلية الآداب بلشبونة .

1907 : يترك الدراسة فى الكلية بصفة نهائية .

1908 : يشرع فى مزاولة عمله كمحرّر للمراسلات الأجنبية فى مؤسسات تجارية للتصدير والاستيراد .

1909 - 1910 : يكتب العديد من السونيتات باسمه الخاص .

1911 : يشرع فى تنفيذ مخطط لدراسة الفلسفة اليونانية والألمانية والآداب الأوروبية الكبرى . ومن ثمّ فقد أمضى فترات طويلة من هذه السنة معتكفاً فى صالة القراءة التابعة للمكتبة الوطنية .

1912 : ينشر فى مجلة AAguia أولى مقالاته النقدية للشعر البرتغالى ، وهى نفس السنة التى ولدت فيها فكرة خلف نِد شعرى له ممثّل فى ريكاردو رييس .

1913 : ميلاد بعض القصائد ، تَوطُّد صداقته بالرَّسام ألمادا نيغريروس وبالشاعر ماريو ساكر نيرو .

1914 : يوم 8 مارس : يوم تاريخى خارق فى حياته الإبداعية : كتابة : نشيد الظفر لكامپوس « مطر مائل » لپيسوا « راعى القطيع » لألبرطو كاييرو – 12 يونيو : ظهور أول قصيدة لريكاردو رييس .

1915 : تأسيس مجلة أورفى مع ساكرنيرو وألمادا نيغريروس .

– 11 يوليو : ساكرنيرو يعود إلى باريس .

– غثت : نشاط أدبى محموم لأنداد پيسوا .

– نوفمبر : الموت المحتمل لألبرطو كاييرو .

1916 : يفكر فى الاستقرار كمنجِّم فى لشبونة .

– أولى تجاربه فى الوساطات الروحية :

– ساكرنيرو يخبره بوساطة رسالة عن رغبته فى الانتحار .

– انتحار ساكر نيرو فعلاً فى 26 أبريل فى باريس .

– تغيير مستمر لأمكنة الإقامة .

1917 : ظهور العدد اليتيم من مجلة .. المستقبلية البرتغالية .. متضمنة قصيدة .. Ultimatum لألبارودى كامپوس .

1918 : ينشر قصائد بالإنجليزية .

1919 : ريكاردو رييس يسافر إلى البرازيل .

– موت زوج أمه فى بريتوريا .

1920 : ينشر أشعاراً بالإنجليزية ويشرع فى كتابةٍ أُخْرى .

– يكتب رسالته الغرامية الأُولَى إِلى أو فيليا كيروث يوم فاتح مارس . وفى 28 منه يستقرُّ مع أمه العائدة من جنوب إفريقيا بصحبة أبنائها الثلاثة فى شارع Coelhod Racla حيث أقام حتى وفاته .

1922 : ظهور العدد الأول من مجلة « المعاصر » متضمناً لـ « رجل البنك الفوضوى » « بحر برتغالى » « ثلاث أغانٍ ميتة (بالفرنسية) » و « Lisbon Revisted » بالإنجليزية .

1923 : سنة الخصوبة الإبداعية القصوى لريكاردو رييس .

– يترجم بضع قصائد لإدغاربو إلى البرتغالية .

– ظهور « بيان طلبة المدارس العليا للشبونة « ضد ألبارودى كامپوس الذى ينشر رَدَّه المضاد : بيان من أجل الأخلاق .

1924 : ظهور مجلة أثينا بإدارة پيسوا وروا باث حيث توالى صدورها حتى العدد الخامس .

1925 : وفاة أمه .

1926 : يُدِير بمعونة صِهره « مجلة التجارة والمحاسبة » التى ظهر منها ستة أعداد ساهم فيها پيسوا بموضوعات اقتصادية تجارية .

1928 : ألبارودى كامپوس يكتب قصيدة « طبكريا » .

1929 : ظهور أول دراسة نقدية حول ف . پيسوا بقلم جَاوْ غاسپار سيمويس .

1930 : پيير أوركاد يكتب فى مجلة « Cantacs » عن لقائه بفرناندو پيسوا .

1932 : يتقدَّم للحصُول عَلَى منصب محافظ متحف ومكتبة الكونط كاسطرو غيمارايه ، لكنه يُقْصَى لعدم تَوفُّره على تأهيل رسمى .

1933 : يمر بأزمة نوريستينية حادة .

1934 : النشاط الشعرى لألبارودى كامپوس يتضاعف مقابل الصمت شبه الكامل

لرييس وپيسوا .

– حصول قصيدة « رسالة » على جائزة من « الدرجة الثانية » فى المسابقة الشعرية التى نظَّمها « مكتب الإشهار الوطنى » .

1935 - 19 نوفمبر . آخر قصيدة لپيسوا تنتهى بهذا البيت :

« اسقنى مزيداً من الخمر ، لأن الحياة لاشيئ » .

–30 نوفمبر : وفاة پيسوا من تشمُّع فى الكبد .

المترجم :

شاعر مغربي من مواليد مدينة أصيلة عام 1953

صدر له : I في الشعر :

١ – باب البحر : عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت 1983

٢ – سماء خفيضة : عن دار النشر المغربية . الدار البيضاء 1989

٣ – ترانيم لتسلية البحر : عن دار المعارف المغربية . الرباط 1992

٤ – شمس أولى : عن دار المعارف المغربية . الرباط 1995

٥ – قبر هيلين : طبع وزارة الثقافة المغربية . الرباط 1998

٦ – ضوضاء نبش في حواشي الفجر - طبع وزارة الثقافة المغربية . الرباط 1998

II . في الترجمة :

١ – نشيد بحري : مختارات من شعر فرنادو وبيسوا

(أ) عن هيئة قصور الثقافة : القاهرة 1995 .

(ب) عن دار الرابطة المغربية : الدار البيضاء 1996 .

٢ – اللهب المزدوج : لأوكتافيوباث :

عن منشورات المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة 1998 .

المحتويات

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــــل



Fernando Pessoa
Selection

فرناندو بيسوا: مختارات

ترجمة: المهدى أخريف

إن الشاعر الواقعى يعلم أن الكلمات والأشياء لا تتماثل، ولذلك يلجأ إلى تسمية الأشياء بواسطة الصور والإيقاعات والرموز والمقارنات.

الكلمات ليست أشياء، أنها الجسور التى نمدّها بيننا وبين الأشياء.

أما الشاعر فهو وعى الكلمات؛ أى أنه نوسطالجيا واقعية.

لقد كان بيسوا الشاعر الواقعى والإنسان المتشكك فى حاجة إلى خلق شاعر فطرى كى يبرر قصيدته هو، كما أنه – مثل رييس وكامبوس – يتلفّظ بكلمات ميتة ومؤرقة، كلمات ضياع وتشتيت، هى بمثابة هاجس أو نوسطالجيا الوحدة المفقودة، ونحن نسمعها من أعماق تلك الوحدة:

نحن لم نعش الحياة، الحياة هى التى عاشتنا بنفس الطريقة التى يرشف فيها النحل الرحيق، نرى نتكلم ونحيا، الأشجار تنمو بينما نحن نيام.

نحب الآلهة تماما مثلما نشاهد مركبًا، بدون أن نعى أبدًا أننا واعون، نمضى.

تصميم الغلاف: ميسون صقر